المقتطف

الجزء الاول من المجلد المائة

١ يناير سنة ١٩٤٢ — ١٤ ذو الحجة سنة ١٣٦٠

رأي عالم كبير

في الدين والعلم

وأثرهما في عصرنا وفكرنا وحياتنا

هذا الفصل ملخص رسالة للدكتور كارل كمپتن وهو عالم اميركي كبير ورئيس معهد من اكبر المعاهد العلمية في العالم اسمه « معهد بوسطن التكنولوجي » الذي خرّج الوفاً من اكبر مهندسي العالم. وقد كتب هذه الرسالة ، يحدوهُ روح الخير والنصفة ، معترفاً في مستهلها بانهُ لا يعدُّ نفسهُ أهلاً لمعالجة موضوع الدين من نواحيهِ الفلسفية العويصة ، او مسائله المذهبية المعقدة . ولكنهُ مع ذلك قدم على الكتابة في الموضوع لأنهُ مؤمن بان هناك نواحيَ من علاقة الدين بالعلم يجدر بالعلماء وغيرهم أن يوجهوا عنايتهم اليها

والناحية الاولى التي ينجه اليها النظر هي ناحية الخلاف الكبير بين العلماء في نظرتهم الى الدين . ففي الطرف الواحد نجد العالم الفيلسوف برتراند رسل يقول « ان رأيي في الدين هو رأي لقريطيوس . فالدين مرض وُلد من الخوف وهو مصدر شقاء الناس لا حدَّ لهُ » . ويقول كمپتن إنهُ لا مفرَّ من الاعتراف بان لقول رسل أساساً من الصحة فجانبٌ كبير يسير من المذاهب الدينية مردُّهُ الى الرغبة في النجاة من خوف او سوء وهذه الرغبة ليست في حدِّ نفسها شيئاً يُذمُّ ولكنها لا تقع في مستوى واحدٍ رفيع مع الدوافع الروحية التي تتجلى

في الشعور الديني . وكذلك يجب ان نسلّم بأن الحرب والاضطهاد والاستغلال باسم الدين جلبت على العالم « شقاء الناس لا حدّ له » على قول برتراند رسل

ويقابله في الطرف الآخر المفكر والعالم الطبيعي الكبير الدكتور مليكن . فهو يقول : —

« ليس ثمة تناقض بين العلم والغرض الأصيل من الدين وهو تهذيب الضمائر ورفع مستوى المثل التي ترنو اليها الانسانية . ولكن الديانات المختلفة او فروع الديانة ، تحتوي على الغالب بعض ما هو غير أصيل في الدين ، وهو مما يشتدّ الاعتراض عليه . وانني لأومن شخصيًّا بأن الدين الأصيل لا دين المذاهب أعظم ما يحتاج اليه العالم »

وبعد ذلك روى الدكتور كمتن ما وقع له مع استاذ لاهوتيّ ، للدلالة على بعد الشقة بين نظرتهما في مسائل الدين فقال إنهُ تبين في بدء الحديث ان الشقة واسعة بين النظرتين ، فوجّه عنايتهُ الى معرفة المسائل التي في الوسع اتفاقهما عليها فقرر ان يسأله سؤالين . فلما أجاب عرف ان الهوّة بينهما غير قابلة للردم

كان السؤال الاول — ما عمر الأرض ؟ ولا يخفى ان المشتغلين بتفسير العهد القديم من التوراة على اعتباره سجلاًّ دقيقاً لحوادث التاريخ ، حاولوا تعيين عمر الارض على أساس سبعة ايام الخليقة وتسلسل الناس من آدم وحواء . وعمر الأرض على هذا الاساس دون عشرة آلاف سنة . يقابل هذا ان العلماء يستندون في تبين عمر الأرض الى علوم الجيولوجيا والطبيعة . ومن أساليبهم تقدير مدى تفتت الصخور والسابها مع الماء الجاري الى البحر حيث تترسّب . وعلى هذا الاساس قدّر الزمن الذي يستغرقهُ هذا العمل في حفر وادي نهر كولورادو مثلاً بمئات الالوف من السنين على الاقل . ودراسة معدل الترسب في مصبي نهري النيل والمسيسبي أفضت الى القول بأن ترسب دلتا النيل ودلتا المسيسبي يستغرق مئات الالوف من السنين كذلك . ثم ان دراسة مقدار الملح التي تذيبهُ مياه المطر ويذاب مع الانهار والجداول الى البحر ، أفضت الى مثل هذا الجواب . ولكن أدق اساليب العلم في تبين عمر الارض يعتمد على تقدير عمر الصخور بدراسة ما تحتويه من المواد المشعة . فكان المواد المشعة ساعات دقيقة مطردة في الصخور ، تحصي القرون المتعاقبة ، وهي غير متأثرة بالبرد او الحر او الضغط او التفاعل الكيميائي . والعلماء يعتقدون ان هذا الاسلوب أدق الاساليب جميعاً في استخراج عمر صخور الارض وهو يقدّر بهِ بمئات من ملايين السنين

قال كمتن : فقلت لمحدثي الاستاذ اللاهوتي ، كيف تستطيع ان تتمسك بالتفسير الحرفي للتوراة وتذهب الى ان عمر الارض عشرة آلاف من السنين ، وأمامك أدلة العلم التي تقدم ذكرها . فقال : أنت العلماء تفرضون فرضاً لا يمكن اقامة الدليل على صحته ، وهو ان النواميس العلمية

التي تستند حينما كانت تنطبق على الارض قبل الف سنة او اكثر من الزمان . أما أنا فأفضل ان أعرض من الكتاب المقدس دقيق دقة مطلقة

فاذا ثبت لنا من الخبر علينا ان نتفق على أساس هذه المسألة وجهت اليه سؤالي الثاني وهو : أيهما أهم في نظرك ولادة المسيح من عذراء ، او تعاليمه المتجلية في كفاحه وحياته . عن صلة الناس بالله ؟ فقال ان ولادة المسيح من عذراء أهم جداً ، لأننا اذا لم نسلم بها ، فقدنا كل أساس يسمح لنا بتعاليم السلطان اللازم لقبولها والعمل بها. فحاولت ان أقيم دليلاً على ان تعاليم المسيح ، منزلة لذاتها ، لأن تجاريب البشر أثبتت صحتها وانني لأستغرب ان توضع تعاليم المسيح ومثله التي وقف حياته على نشرها وتمكينها في النفوس ، في منزلة تلي ما لطريقة ولادته من منزلة . ولكننا لم نتفق

وانني أذعن ان المثل الذي ضربته في ما تقدم لا يعدو كونه مثلاً نادراً ، ولكنه مع ذلك يجب ان نعترف بأنه يمثل لوناً من التفكير الديني ترجع أصوله الى عصور منغلغلة في القدم . فمن بضعة آلاف من السنين كان كل مظهر من مظاهر الطبيعة يسند الى عمل ربٍّ او ربّةٍ او الى أمرد او أمردا . ولكننا اليوم ندرس بيانات المراصد الجوية بدلاً من ان ننهل من الشمس والريح والمطر وفي هذه البيانات والكتب التي ألفها علماء الظواهر الجوية (متيورولوجيا) نقع على القواعد والضوابط التي تفسّر حركة الرياح وتولد الغيم وانهمار المطر . وكانت المحاصيل في العصور البدائية ، تعتمد في نظر الناس بين اقبال وإدبار على ربّة الحصاد ولكننا نعلم الآن انها تعتمد على نوع البذور وطبيعة التربة وتوزع ضوء الشمس والمطر والسيطرة على الآفات الحشرية

وعلى هذا فمن كان يرأي ، ان القول بان الارض ليست مركز الكون ضربة قاضية على التصوص الدينية ، لأن هذه النصوص تحتوي على آيات تقول ان الشمس تشرق في الشرق وتغرب في الغرب والنجوم تسير في أفلاكها . والتعليم بالصور الفلكية الحديثة ، كان الهزيمة الأولى لأولئك الكنيسة المتقدمة ، وما ارغبته من جلباب السلطان والعلم الذي لا يخطىء

وقد كان الفلكيون يقولون ان الارض كانوا يعرفون هذه الحقيقة قبل كوبرنيوس ، ولكن آراءهم في حجم كرة الارض كانت خاطئة . إلاّ ان الكنيسة قاومت هذا الرأي معللة رأيها بالنصوص التي « لها زوايا الارض » . فكيف تكون الارض كرة ولها زوايا ؟ وفي مرحلة معينة من مراحل هذا النزاع اقترح بعضهم اقتراحاً وسطاً غريباً . ذلك بأن تجعل خارطة الارض المسطحة منتجة تقطعاً مستديراً بين الزوايا ، فيحتفظ فيها بفكرة الزوايا الاربع ويبقى على الاعتقاد بان الارض كما أثبتها رجال الملاحة وعلماء الفلك

وفي عهدنا هذا نلاحظ طائفة كبيرة من الكتاب وهي تكافح كفاحاً خاسراً نظرية التطور . فمن نحو ربع قرن عندما كانت زوجتي تؤدي نصيباً من الخدمة في جمعية انتقابات المسيحية ، زارت معاهد كثيرة للبنات او للتعليم المختلط حيث كان تعليم نظرية التطور محظوراً . وكانت البنات تشير الى هذه النظرية همساً كأنها تنوي شيئاً عن هذا السبب . وفي أثناء زيارة زوجتي لهذه المعاهد كانت البنات تجتمع طوائف وتطلب كل طائفة من زوجتي ان تنيرهن ببسط مبادىء هذا الموضوع الممنوع . وقد فرض هذا الحظر على الرغم من ان أجيالاً متلاحقة من العلماء استوضحت حقيقة التطور العضوي في النبات والحيوان والانسان بدراسة الطبقات الجيولوجية وما فيها من آثار متحجرة وبتوفرها على دراسة تشريح المقارنة وما أشبه . بل اننا خطونا في هذا العصر خطوة كبيرة بعد ما تبينا اننا قادرون على استحداث انواع جديدة من النبات والحيوان بتعريضها للاشعة السينية او اشعاع الراديوم أو باستعمال بعض المواد الكيميائية لاستحداث صفات جديدة وراثية فيها ولا يستبعد أن تسيطر على التطور العصري عملاً تجاريّاً بسخرة مئات الملايين من سلالات النباتين

جميع الاقوال السابقة الذكر ذاهلة بالسؤال هل هناك نزاع بين العلم والدين . والرأي عندي أن الاجابة عن هذا السؤال مرتبطة بما تحتوي عليه ديانة ما . فاذا اتجهت ديانة ما نحو اصدار الآراء في شؤون المادة ونواميس الطبيعة والقوى المحركة فيها ، سواء أقوانين علم الطبيعة كانت ام قوانين علم الفلك ام قوانين علوم الأحياء والوراثة ، فالجواب انهُ لا بدَّ للدين من الاصطدام طبعاً ام آجلاً بالمعارف العلمية المتغيرة السائرة الى الأمام ولا بدَّ ان يكون الدين في الجانب الخاسر في هذا الصدام . واذا كان هناك من رجال الدين من يتبرَّم بهذا القول فعليه بمراجعة ما اوضحه بليس الذي فرَّق بين مبادىء الدين وبين حقائق الوجود المتغيرة بتقدم الذهن الانساني واتساع دراكه

ومما يذكر في هذا الصدد للتسلية والعبرة ، حادثة حدثت بوسطن بالولايات المتحدة عندما كان فرنكلين يجري في تجاربه التي أفضت الى استنباط قضيب العاصفة . فتحير فريق من رجال الدين في بوسطن وسخطوا اشد سخط على هذا الاثم المتدخل في عمل الله الذي اختار الرعد والبرق لتأديب ابنائه الخطاة . فما زالت الارض راقدة في تلك الحقبة زعم الوعاظ من منابر الوعظ ان الله يحذّر الناس من التدخل في أعماله . وليس ثمة ريب في ان هذا الموقف الذي وقفهُ رجال الدين أفضى في أذهان المتتبعين لكشف والاستطلاع الى شيء من الانصراف عنهم وعن المذاهب التي ينشرون بها

يقابل ذلك ان العلم لم يتعدَّ حدود ما للدين من وظيفة اساسية في حياة الانسان . حتى نحن

آماله ومثله والبواعث التي ترشده في صلته بجوانبه في الجماعة . حتى في هذه الدائرة للعلم نصيب من حيث قدرته على ضبط الاضطرابات العقدية او النفسية ، التي تشوه نظرة المرء الى الحياة والناس وتجعله في سلوك لا يوحي به العقل ولا تقبله او تتحمله مصلحة الجماعة

ولكن مع التسليم بكل هذا اعتقد ان في الانسان فطرة دينية تتوق الى الإعراب عن ذاتها وان هناك دنيا عريضة ، للقام الاول فيها للتقدير الروحي ، فالشأن الاول فيها للدين لا للعلم

***

ان مصادر النزاع الذي قام في فترات مختلفة بين الدين والعلم مردها الى مسائل ليست من صميم الدين . وهي اما بقايا اوهام قديمة وإما اضافات لصقت بالدين كما يلصق بعض الصدف بقعر السفن . وقد نشأت هذه الاضافات من مساعٍ صادقة مترهة بذلها فريق من رجال الدين في سبيل استصفاء فلسفة حية ، فتغلغلت في المذاهب الدينية واندمجت فيها . وعندي ان العلم أسدى خدمة عظيمة الى الدين الصميم في فك القيود التي قيدته بها هذه الاوهام القديمة او الاضافات وأطلقته حرًّا نحو أغراضه العليا

ثم ان تأثير العلم في الدين وضّح للناس ان الدين قوة حية متحركة لا قوة جامدة مستقرة . ومن الأمثلة التي تضرب على الجمود والاستقرار الايمان بحرفية التوراة مثلاً وكلها الدائم . اما الذين يعتبرون الدين قوة حية فينظرون الى التوراة على انها قصة لسعي الانسان الدائم وارتقائه المستمر في سبيل إنشاء نظرة دينية الى بيئته وما فيها . فاذا نظرنا الى الدين هذه النظرة الحية زالت في الحال مفارقات عجيبة غريبة ، فتفهم التحول في نظر الانسان الى الله من ارباب تُسالاً وتُسطرى وتتصرف حسب وهمها ورغبتها العالية ، الى صورة الله الواحد الذي يسير مع الناس ويؤدبهم ثم يغفر لهم اذا تابوا وأنابوا ، الى صورة قوة روحية عظيمة تفعل فعلها عن طريق دراميس طبيعية ، يستطاع فهمها والاعتماد عليها ، وفي الوسع كشف حقيقتها بالعلم . وهذه النظرة الحية الى الدين تريها تتطور في صور الخير والشر من مرحلة الطاعة العمياء المجموعة من القواعد ، الى صور الحدس الاجتماعي والخير العام . وفي صور الاخلاص والحياة الباقية ، وانصرافها رويداً رويداً خلال الحقب ، عن الاعتبارات الخاصة الى الاعتبارات العامة . هذه الصورة صورة الخير السامي ، صورة القوة الروحية ، يقبلها العلم وعندي ان صورة الدين المستقر تجعل الدين عقبا غير مقبول

واني لأعتقد ان هناك حاجة الى تعدُّد المذاهب الدينية ، لأن كلاً منها يوجّه عناية خاصة الى ناحية من نواحي الحياة الروحية المعقدة المتعددة النواحي . والباعث على هذا الاعتقاد مزدوج هذه الاول ان الناس مختلفون مزاجاً وخلقاً ومنهم من تحكمه العاطفة

والانفعال اكثر مما يحكمهُ العقل . ومنهم من هو أميل الى التأمل منهُ الى العمل والحركة . ومنهم من يندفع بطبعهِ الى تحمل التبعة وتقلد الزمام بينما غيره يؤثر ان يُرشد ويقاد . وإذن فمن الطبيعي ان تتعدد الكنائس والهيئات الدينية فيجد كل من هؤلاء الناس المذهب الروحي الذي يلائمهُ . وأما الشق الثاني فردُّهُ الى ان التباين يقضي الى النشاط والتقدم . وهذا مبدأ يصدق على جميع نواحي الحياة من نبات وحيوان وهيئات اجتماعية . ولذلك لا أوافق بعض من يطالب بمحو جميع المذاهب الدينية والهيئات الدينية وضمها جميعاً في مذهب واحد ولخضاعها لهيئة واحدة . ولكن التعدد والتباين بين المذاهب والهيئات الدينية يقتضي التسامح التبادل والاحترام وأساس هذا التسامح هو التشابه بل الوحدة بين الأغراض الدينية العليا التي يتوخاها كل مذهب ديني

واذا سلمنا بأن الدين يشمل النزعات والقيم الروحية ، وأن العلم هو المرجع في نطاق الحقائق المشاهدة والصلات المنطقية بينها ، فيجب علينا كذلك ان نتذكر إن للعلم حدوداً في نطاقه قلما يشار اليها . فالعلم لم يكشف قط العلة الاولى ولا الغاية النهائية لشيء ما . في وسع العلماء ان يبينوا كيف يتحرك الكون ، ولكنهم لا يزعمون انهم يستطيعون أن يكشفوا علتهُ الاولى او الباعث على تحركه أو الغاية من هذه الحركة . فاذا شاءت ديانة ما ان تشمل آراء في هذه النواحي ، فليس في وسع العلم ان ينكرها لانها خارج نطاق العلم . ولكنني اعتقد مع ذلك انها خارج نطاق الدين وما دام اثباتها او إنكارها بالبرهان والشاهدة متعذرين فالمسألة متروكة للتخيل والتأمل

وخلاصة القول ان تاريخ الصلة بين الدين والعلم يبين ان شؤون العالم والحياة التي تخضع للمشاهدة والامتحان تؤلف عالماً ، السيادة فيهِ للعلم . فالعلم لم يحل محل الدين ولا يستطيع ان يحل محل الدين في معناه العميم . ولكنه يهيء لنا جواً يجب ان نساوقهُ افكارنا في المسائل الدينية . فالعلم قد اعطى الانسان على كر الدهور ان يوسع افق نظره الى الدين بتحطيم الحواجز المصطنعة القائمة على الجهل والوهم والخرافة واتجاههُ العام انما هو الى توجيه نظر الناس الى الصفة الروحية للدين من حيث هو يمثل أرفع المثل وأسمى النزعات وصرف نظرهم عن النظريات اللاهوتية والخلافات المذهبية . وليس من يشك في ان العلم كان لهُ أثر عظيم في نقل الاهتمام بالدين من الاهتمام بالمسائل المادية والدنيوية الى المسائل الروحية

اذن فالعلم كان ذا نصيب في تحويل الدين الى قوة روحية حية فعالة . وقد أدّى هذا النصيب بعمله الناس على تحكيم العقل في الشؤون المشاهدة ثم بالقضاء على الوهم والخرافة واخيراً بتوجيه العناية الى ان التفكير الديني يجب ان يماشي تقدم المعارف في كل ما يتعلق بنشاط الانسان واحوال بيئتهِ وتسيرها تسيراً يتسق وأعلى النزعات الروحية

عصر النتروجين

به ترهف الجيوش وتحارب
والبه مردّ الفكر في جميع الحضارات

وُصفت عصور التاريخ القديم والمتوسط والحديث اوصافاً شتّى. ومعظم هذه الأوصاف مستمدٌ من المادة التي صنعت منها الأدوات الغالبة في كلّ منها. فقيل عصر الطرّان، وعصر الشبه، وعصر الحديد، وعصر الكهربية. ولكنّ وصف هذا العصر «بعصر النتروجين» يرتدّ الى صفةٍ غالبةٍ عليه، أبرزها العلم الحديث، فمكّنت الناس من مجاراة الطبيعة والحياة في عمل الخلق. فهي أعمق أثراً في الحضارة، وأبعد تغلغلاً في قدرة الانسان المتحضّر، من مجرّد صنع ادواته من طرّان أو شبه أو حديد أو تحريكها بالطاقة الكهربية

ذلك بأنهُ انقضت قرونٌ وراءها قرونٌ وانتاج الغذاء الحيوانيّ، مستحيلٌ إلا في البقاع المنشوشة، وانتاج النبات الغذائي مستحيلٌ إلاّ في الأراضي التي تتصف بخصب طبيعي يجعل نموّ النبات فيها متاحاً بغير عناء. ثم كشف الناس ان السماد الطبيعيّ وبقايا الحيوان المتحللة تزيد خصب الأرض او تسبغ الخصب على ارض قاحلة. فتعلّم البشر ما للسماد من قيمة، وجعلوا ينقلونهُ من مكان الى مكان ليلجأوا به الأرض المتحلة. ثم تبينوا ان نباتات العلف من القبيلة البقلية التي تصلح لعلف المواشي تصلح كذلك لإخصاب الأرض وتهيئتها للانتاج

فلما تفذ الانسان الى بعض اسرار الطبيعة، اصبح قادراً ان يعاونها، ومع ذلك ظلت القدرة على الانتاج مرتبطة بسخاء الطبيعة الذاتي. فلما تمكن العلماء من تثبيت النتروجين أحدثوا انقلاباً اساسيًّا في الحضارة. فتغير مقام الانسان على الارض من عبد خاضع لاحوال الطبيعة الى سيد يستطيع ان يتحكم في نواح منها. ذلك بأن تثبيت النتروجين اتاح له في الهواء معيناً لا يغيض من الأمونيا والنترات، واذا بين يديه وسيلة لانتاج مقادير من الطعام لا تحدّ

عند ما تتحلّ الاجسام العضوية، يتطلق النتروجين الداخل في تركيب بروتينها، غازاً حرًّا ويتسرب بهذا الحيط الغازي الذي يحيط بكرة الأرض. ويتحول بعضه الى أمونيا، وهذا الغاز المركب يصبح مناحاً للنبات فيثبته بأساليبه الخاصة مولداً منهُ مركبات النترات.

وما لا يستعمله النبات يتحول جانب منه الى نترات ويتاح للنبات في تراب الأرض وماثها

واذا أستثنينا بعض اصناف البكتيريا والنبات الدنيّ في سلم النشوء ، فليس بين النباتات جميعها ما يستطيع العيش بغير أمونيا أو نترات . وقد كان هذان المركبان ، الى عهد قريب لا يؤخذان الا من الأجسام العضوية المتحللة ، منها ما هو حديث الانحلال كالسماد الطبيعي ومنها ما انحلّ في العصور المتغلغلة في القدم كنترات الشيلي . ولا يستثنى من ذلك الا مقادير يسيرة من النترات تتولد في الهواء اذ يتحد الاكسجين بالنتروجين بفعل الشرر الكهربي ثم تسقط على الأرض مذابة في قطرات المطر

وجميع النبات ، إلاّ ما كان قادراً على استعمال نتروجين الهواء مباشرة ، يحتاج الى الأمونيا او النترات في تقويم أفعاله الحيوية . وفي أثناء نموه يولد النبات مواد دهنية ونشوية من ثاني أكسيد الكربون الذي في الهواء ، ومواد زلالية من الأمونيا والنترات التي في التراب . وبعض النبات يصلح غذاء للانسان . وبعضهُ للحيوان . والحيوان يحول الغذاء النباتي في جسمه الى شحوم حيوانية ومواد نشوية وزلالية . ثم يتغذى الانسان بالحيوان ويحوّل في جسمه المركبات النتروجينية الى زلاليات بشرية ويستخرج من الشحم والنشاء الطاقة التي لا غنى عنها لنشاطه الجسماني والعقلي . أما البروتينات فتدخل في بناء العضل والعصب والمادة السنجابية في الدماغ بل هي العضل والعصب والمادة السنجابية

وقد فاز اكتشاف طريقة تثبيت النتروجين بانجاب العالم ورُفع مقام صاحبه الاول لأن استخراج النتروجين من الهواء وتحويلهُ الى مركبات تدخل في تركيب السماد الكيميائي يغني الأمم بعض الغناء او كلهُ عن الاعتماد على استيراد مواد الغذاء ، ثم انهُ يدخل في تركيب المواد الحربية المتفجرة . وفعلاً قيل ان فرتز هابر العالم اليهودي الالماني الذي كشف الطريقة الأولى لتثبيت النتروجين في الحرب العالمية الماضية ، مكن المانيا من إطالة أمد مقاومتها بعدما قطعت عنها موارد الغذاء ونترات الشيلي اللازمة للسماد والمفرقعات بفعل الحصر البحري . ولكن الوطنيين الاشتراكيين في تعصبهم العنصري الأعمى نفوه من المانيا وهو أبى ان يبقى فيها بينما أبناء جلدته يُضطهدون أشدّ اضطهاد ومات منفيًّا في بريطانيا من سنوات

من الاقوال المشهورة المنسوبة الى نبوليون « ان الجيوش تزحف على بطونها » والاشارة واضحة في قول نبوليون ، الى زاد الجيش . وزاد الجيش مردُّه في آخر الأمر في هذا العصر الى النتروجين المثبت . واذا كان الجيش على قول نبوليون يزحف بفعل النتروجين المثبت الداخل في تركيب مواد الغذاء ، فانهُ لا يستطيع ان يحارب بغير نتروجين مُثبَّت داخل في تركيب المواد المتفجرة

« البنية في باب الاحبار العضوية »

« وَإِنَّمَا ٱلْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ »

أحاديث عن حي

---

١ — حضرة صاحب المعالي الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا
٢ — حضرة صاحبة العصمة هدى هانم شعراوي
٣ — حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك
٤ — حضرة الناثر المحترم الاستاذ عباس محمود العقاد
٥ — حضرة الفاضلة السيدة زيني خير
٦ — حضرة صاحب العزة الاستاذ انطون الجميل بك
٧ — حضرة صاحب العزة الدكتور منصور فهمي بك
٨ — حضرة الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني
٩ — حضرة الاستاذ خليل مطران بك
— حديث عن : للاستاذ محمد عبد الغني حسن

[رحّب هؤلاء الأعلام الأجلاء بدعوة المقتطف ، وتكرموا بأجابتها ، بالحديث عن (حي) . فكان للاستاذ محمد عبد الغني حسن الذي تفضل فناب عنه في جمع هذه الأحاديث وإعدادها للنشر . ولقد كان وقوفهم (لحي) جميلاً وتقديرهم له كريماً نبيلاً . فنحن نشكرهم على بعض ما وجب من حقهم ، ونجزيهم بعض الجزاء عن حسن صنيعهم ، وجميل فضلهم — المقتطف]

حضرة صاحب المعالي الشيخ

مصطفى عبد الرازق باشا

وزير الاوقاف

لم أتكلف في الوصول الى معالي مصطفى باشا عبد الرازق مشقة او عنتاً . ولم أصادف في الاتصال به جهداً ولا نصباً . فهو وزير من طراز الصدر الاول من بني العباس في سماحة الخلق ، وبشاشة الوجه ، وسجاحة النفس ، ورحابة الصدر . لا تفارق الابتسامة اللطيفة ثغره ولا يزايل التهلل والاشراق جبينه ، فهو كما قال عبيد الله بن قيس الرقيات في مصعب

شهابٌ من الله تجلّت عن وجهه الظلماء

ولقد شرفني (المقتطف) بأن أخذ منهُ الحديث عن (مي) فشرفني معاليه باستجابة الدعوة وتحديد الموعد . وكان كريماً في تفضله ، وفياً في تنازله ، دائباً في تواضعه ، عالياً في مجده ، فذكرني شأناه من الدنوّ والسموّ بقول الشاعر :

كذاك الشمس تبعد ان تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

وشرّفني معاليه — للمرة الثانية — بلقاء وشيك ، واستقبال سريع فما جرى على غير سجيته ومأنوس بشره ومألوف بره ، وكان في يومه خيراً من أمسه . وفي الغد بكّرت في الحضور حتى يكون حظي من اللقاء أعظم ومدلي من الحديث أنسح . وهنا طال المجلس ، وامتدّ الحديث ، وأنا كثير الطمع في رحابة صدره ، وتسامح آفاق حلمه ، ومعالي يستمع الى أسئلتي عن (مي) فيجيب عنها في هدوء الفيلسوف ، وأنفة الأديب ، وتمكّن العالم

فما ضاق معاليه بسؤال ، ولا تعرّض لبعض المراد بمسكة من امتعاض ، ولكنهُ كان يستوفي الاجابة في دقة ورفق وأناة ، وفي بصر بمواقع الكلام ومرامي الحديث ، وفي أناقة في اللفظ وسلامة في التعبير وسمو في التفكير

والأدب والعلم في بيت عبد الرازق ميراث الاجداد الى الأبناء ، واليهم انتهى القضاء الشرعي في البهنسا بمديرية المنيا ومن هنا تعرف السر في احتفائهم بمن ينتمي الى الادب بسبب أو يتصل منهُ بسبب ، وان كان لشرهم وايناسهم قد عمّ كل طبقة وامتدّ الى كل طائفة

رأيت في زيارتي الثالثة لمعاليه شيخاً في مكتبه، وقد أدناه الوزير منه وقرّبه اليه، والشيخ يميل على جوانبه كأنه يميل على أبيه ... فعرفت كيف استطاع مصطفى باشا أن يجتذب القلوب، ويأسر النفوس، ويجعل الناس مجتمعة على محبته

ومعالي مصطفى باشا عبد الرازق أديب قبل ان يكون فيلسوفاً وشاعر قبل ان يكون كاتباً، ولقد مدح معاليه وهو فتى ناشىء الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده على احد مراثيه بقصيدة

وتظهر شاعريته في رقة حاشيته، ولطف جانبه، وسلامة ذوقه في قيامه وقعوده وتسليمه ووداعه، واستواء هيئته، وحسن بزته، وفي حلاوة حديثه وعذوبة صمته ...

ولعلّ معاليه ترك قرض الشعر من زمن بعيد وعمد الى النثر، او لعله يضن بشعره ان ينشر، ولكن الذي لا شك فيه ان في معاليه من الشاعر السامي، الرقة والاحساس والشعور وفي وجهه شاهد من الخبر ....

ومعاليه كاتب من طراز رفيع، وله في كتابته سنتان احداهما دقته التي كانت نتيجة اشتغاله بتدريس المنطق والفلسفة الاسلامية في الجامعة المصرية، والاخرى هذه الاناقة في التعبير، وذلك الاحتفال بالاسلوب دون قصد الى تعمد او تكلف. فالاناقة طبعه، والرقة سجيته في شأنه كله

***

ولقد وقف معاليه في حفل تأبين (مي) يلقي كلمته، ويستعيد (من ذكرياته) في صوت خاشع رزين، وفي جو تحفه المهابة والوقار. ولقد اجتمع في اثناء كلمته وقار ذكرى مي وقار معاليه، والتقى جلال الموقف مع جلال الوزير، فاذا الجمع ساكت، واذا الابصار خاشعة، واذا كلمته في القائها المتزن، ووزنها المعتدل، وصدقها واخلاصها تثير في السامعين مكامن الشجن، وبواعث الحزن

ولقد تخير معاليه لكلمته في الحفل استهلالاً بارعاً، كما يتخير الشاعر في قصيدته روائع المطالع، ما أجمل وأروع ذلك المطلع من كلمته حيث يقول (شهدنا مشرق مي وشهدنا مغيبها، ولم يكن طويلاً عهد مي، على ان مجدها الأدبي كان طويلاً في الحياة عريضاً)

وذكرني ترديد معاليه لتلك الشمس المشرقة الغاربة على قصر عهدها وصغر عمرها بالكلمة المشهورة للبكتور هرجو (أيتها الشمس المتغيبة وراء الأفق! ان أشعتك باقية الانوار)

وهي الكلمة التي ودعت بها (مي) المرحوم الدكتور يعقوب صروف في حفل تأبينه بدار الأوبرا الملكية

ومصطفى باشا عبد الرازق بتأبينه (ميًّا) في حفلها ، وبتكريمها بالحديث عنها الى المقتطف يضرب أحسن الأمثلة في الوفاء ورعاية حقوق الصداقة وواجبات المودة . ومعاليه يعرف كيف يتخير الأصدقاء حتى من تلاميذه ، ويقول في مقدمة كتاب معروف ترجمهُ واحد منهم (اذا لم يكن لنا من تلاميذنا أصدقاء ، فليس لنا في الناس من صديق)

وسيرة مصطفى باشا عبد الرازق تنعطر بها المجالس وهي تمتاز الى الجانب الخلقي الرفيع منها بجانب الدأب والتحصيل والاطلاع الدائم المتصل ، وقد اشار الى مكان معاليه في النهضة التجديدية الحديثة الدكتور تشارلز آدمز مؤلف كتاب (الاسلام والتجديد في مصر) وذكر طرفاً من ترجمته وآثاره

بدأ حياته نابهاً أمميًّا ، وبلغ اليوم ما نرجو له مزيد الخير فيه ، فلقد بلغ السماء مجده وجدوده ، إنا لنرجو له فوق ذلك مظهراً

***

١ — سألت معاليه : (كيف نشأت الصلة بين معاليكم وبين « مي » ؟ وما رأيكم في ناديها الادبي وإدارتها الحديث فيه ؟)

فأجاب معاليه : رأيتها أول مرة في حفلة « بالكم تتنتال » للاحتفال بمرور خمسة وعشرين عاماً على انشاء مطبعة المعارف. والواقع ان الزمن أنساني كيف نشأت الصلة ، ولكن الذي لا يُنسى أنني بعد هذا كنت من المترددين على ناديها الادبي . والحق ان « ميًّا » لم تكن تمشي للحفلات الاجتماعية والأندية كثيراً ، فكان الاجتماع للمتصلين بها في ناديها الخاص الذي جعلته في بيتها ، وكان المجتمعون يستطيعون ان يقضوا جميع مواسمها الأدبية والخلقية . أما من الناحية الأدبية الفنية فلأنها كانت هي التي تتولى ادارة الحديث في المجمع وكان تنوُّع الأحاديث وشجوها وسلامتها من كل ما لا تخلص منهُ عادةً المجامع يدل على مقدار كفايتها الادبية ، وقيمتها الاخلاقية

وكانت « مي » تدير الحديث ولكن من غير ان تظهر بمظهر المتزعمة في النادي ، او المتصدرة في المجلس مما يدل على ناحية من نواحيها الخلقية الجميلة

٢ — فسألت معاليه : (ما رأي معاليكم في تحصيل مي للعلوم ، واكبابها على الدرس وغرامها بالمطالعة ؟)

فأجاب معاليه : أظن ان أحداً ممن عرف الآنسة « مي » لا يشك في أنها كانت متنوعة الثقافة ، وأنها كانت مشغوفة بالتحصيل والاستفادة والمطالعة وكانت دراستها — فيما أعتقد — دراسات أدبية . أعني أنها تذهب الى ناحية التفكير الأدبي او الاجتماعي او الاخلاقي من غير ان تنزع الى نزعة التخصص التي تدعو الى الدخول في معضلات المسائل العالية او في استعمال الأساليب الفنية في التعبير . وليس هذا الذي ذكرت غضاً من قيمة «مي» العلمية، لأنه اذا كان أثر العلماء المتخصصين أثراً كبيراً في ترقية الفكر الانساني ، وترقية الحضارة الانسانية، فان أثر العلماء المتأدبين في ترقية الفكر الانساني وفي ترقية الحضارة ليس أقل شأناً

ولعلّ الأفكار والأبحاث العلمية التي لها صبغتها الفنية لا تصل الى دور العمل ودور النفوذ الى عقول الشعوب وقلوبها الا بوساطة الادب

٣ — فسألت معاليه : (ماذا كانت لغة الحديث عند (مي) في نشرها وفي خلال مناقشاتها ؟)

فأجاب معاليه : أما حديث «مي» الغالب فكان باللغة العربية ، وكان بالعربية الفصحى ومع تأنق (مي) في شأنها كله ، وفي حديثها على الخصوص، فانها كانت تصل الى جعل اللغة العربية الفصحى لغة حديث في مجمع راقٍ ليس كل شاهديه من أنصار العربية الفصحى ، من غير ان يشعر أحد من سامعيها بأن حديثها أقل سلاسة او أظهر تكلفاً من حديث المتكلمين باللغة العربية العادية او المتكلمين بأي لغة من اللغات الحية الراقية

وأظن ان ميًّا خدمت بهذه الناحية من نواحيها اللغة العربية خدمة كبيرة ، لانه اذا كانت للجرائد والمجلات أعانت على التوفيق بين منازع الراغبين في استعمال اللغة العربية بأساليبها الموروثة وبين منازع الراغبين في استعمال اللغة العامية ، او ما يشبه اللغة العامية ، فان ميًّا أسدت هذه الخدمة نفسها الى اللغة العربية في ناحية لا تصل اليها الجرائد ، وهي ناحية التخاطب والتحاور . فكما أسدت الصحف والمجلات خدمة التوفيق بين هذه المنازع عن طريق الكتابة ، فان (ميًّا) أدتها عن طريق الحديث والمخاطبة

٤ — فسألت معاليه : ما رأيكم في الكتابة التي استولت حيناً على مي ؟ هل

كانت اصلاً فيها ثم طارئة عليها ؟ وهل ساعد تفكيرها العميق على اسعافها في أحزانها و اسعادها ؟)

فأجاب معاليه في إيجاز : لا أعتقد ان ميًّا كانت بأصل فطرتها كئيبة ، وقد يكون مجهودها العقلي أعان الظروف السيئة التي صادفتها في سنيها الأخيرة على ما جدَّ لها من كآبة وحزن

٥ — فسألت معاليه (ما احب كتب « مي » او آثارها القلمية الى معاليكم ولماذا ؟)

فأجاب معاليه : لعلي لم أسأل نفسي هذا السؤال قبل اليوم ! ولكن في حفل تأبينها سمعنا قطعة من قطع (ميّ) الادبية ألقتها فتاة لها صوت « مي » فخيل اليَّ ساعتئذٍ ان هذه القطعة هي أحب ما اختص « مي » الى نفسي

٦ — فسألت معاليه : (هل كانت « مي » من المحافظات على التقاليد ، المتمسكات بموروث العادات ؟ وما سر ذلك الحفاظ منها على الرغم من تشبعها بالثقافة الغربية ؟)

فأجاب معاليه : اذا كانت المحافظة على التقاليد درجات ، فان «ميًّا» لم تكن في طرفيها ، وأعني أنها لم تكن في أول حدود المحافظة ولا في نهاية حدودها . ولعلنا — في جيلنا — لم نكن نرى « ميًّا » من المحافظات ، ولكن معاني المحافظة والتجديد تتغير وتتغير بسرعة ، ولعل ما كان معتبراً من التجديد في اوائل هذا القرن أصبح في أيامنا هذه يعتبر محافظة . وقد أصبحت خطوات الزمن أسرع من خطوات المفكرين الذين يطلبون التجديد عن روية وأناة « فمي » كانت مجددة في حكم الرأي العام لاول عهدها ، ثم تطورت الظروف بأسرع مما تطوَّرت ميّ ، لان « ميًّا » كانت مفكرة ، وما أظن الظروف تراعي في تطوراتها تفكيراً

٧ — فسألت معاليه : (لقد دافعت مي عن الاسلام ودعفراطيته في كتابها (المساواة) . فهل درست مي شيئاً عن روح الاسلام وحقيقته وفلسفته ؟ واذا كان ذلك فمن كان معلمها ؟)

فأجاب معاليه : ما اظن ان ميًّا كانت تجهل من الاسلام ما يجب على أديب مثقف أن يعرفهُ من شئون دين له في تاريخ الفكر البشري ، والحياة الأدبية في البشر ما للإسلام

ولم تكن (مي) متعصبة لدين ، ولكنها كانت متدينة ، ولم تمس نزعاتُ الفكر الحر المسرفةُ أحياناً — التي كانت تحيط بها — صميم إيمانها

٨ — فسألت معاليه : (لا مجال بالطبع للمفاضلة بين عائشة التيمورية وباحثة البادية والآنسة مي ولكني أسأل معاليكم عن رأيكم اجمالاً في اثر هؤلاء الكوكبة والشواعر في الأدب العربي)

فأجاب معاليه : الواقع ان اعتبار ظروف الزمن والأحوال الاجتماعية المحيطة بالاشخاص له أثر كبير في تقدير قيمتهم ووزن أثرهم في الجماعة أو في الأدب

فالزمن الذي نشأت فيه عائشة التيمورية واشتهر فيه العلي والأدبي [illegible] لان ينشىء أدبية كمي ، ولم يكن مستعداً لان يحتمل نزعة من نزعات التهوس النسائي كالنزعة التي أوجدتها باحثة البادية ، او النزعة التي أوجدتها «مي»

فاذا كانت «مي» أوسع ثقافة او أكبر مظهراً في الحياة الادبية من سابقتيها فينبغي ألا ينسى عند الحكم في ذلك انه يرجع الى اختلاف التطورات واختلاف البيئات . بل اختلاف الحياة كلها في هذه الأجيال الثلاثة التي تمثلها الأدبيات الثلاث

٩ — فسألت معاليه : (ما أثر الآداب الافرنجية في الآنسة مي وفي طريقة كتابتها ؟)

فأجاب معاليه : للآداب الافرنجية من غير شك أثر ظاهر في اسلوب مي وفي طريقة معالجتها للموضوعات التي عالجتها . ولعل أثر الآداب الاوربية الذي وصل الى مي من طريق الكتاب السوريين في أميركا — كتاب المهجر — لا يقل عن أثر مطالعتها للآداب الأوروبية ذاتها . ولمي ومن يحذو حذوها من الأديبات والأدباء مذهب في الكتابة العربية لا يزال حيًّا يزاحم في ميدان التنافس بين الاساليب الجديدة التي يلتمس كل واحد منها النصر في سبيل انتصاب . والله أعلم لأيها يكون النصر

ومن يدري ؟ فقد يكون للحرب القائمة ونتيجتها أثر حتى في أساليب التفاهم بين الناس

حضرة صاحبة العصمة السيدة جميلة

هدى هانم شعراوي

رئيسة الاتحاد النسائي

السيدة هدى هانم شعراوي هي زعيمة « الاتحاد النسائي » ، ومثال راقٍ للمرأة المصرية المثقفة ، أفرزخ قلبها بين يدي تـديها او صنيعة تقدمها أو بر تدخره عند الله

سمعتها تفتتح حفل تأبين « ميّ » وعليها هالة من وقار ، وسمات من كرامة محتد وعراقة أصل ، وفيها ثقة واعتداد ، واطمئنان واعتزاز . وكان الحزن يبدو في نبرات صوتها وقسمات وجهها ، ومن خلال سطور كلمتها . وكانت تروح على مسرح الحفل وتغدو ، وتقوم وتقعد ، لأن نظام الاجتماع كان موكولاً اليها ، ونجاح الحفل كان مردّدًا الى فضل نشاطها وحسن تنظيمها

وبلغ تأبين ميّ في دار « الاتحاد النسائي » غاية النجاح ، وانتهى الحفل ، وطوى انبساط وانقضّ الجمع الحاشد الذي وفد ليسمع الانسانية تؤبن « ميًّا » الانسانة ، وليرى وياض الأدب تبكي على « ميّ » الزهرة ، وليشترك في الوفاء لفتاة كان من طبيعتها الوفاء لشرقيتها وجنسها ووطنها . وجميل من هدى شعراوي ان تخص « ميًّا » بتكريمها بعد موتها كما كرّستها في حياتها . فان عصمتها أولى الناس بتقدير العاملات وتكريم النابهات

ولقد سمعتها بعد الحفل تتحدث الى الدكتور طه حسين بك في شأن فتاة تساعد عصمتها على اتمام تعليمها ، وتعينها على تحقيق آمالها . ويظهر ان هذه الفتاة واسعة الآمال ، عريضة الأماني . وكنت أستشفُّ من كلام عصمتها الى « مراقب الثقافة بوزارة المعارف » معاني الرحمة التي طبعت عليها ، وألمس في كلماتها الرحيمة القوية ، عطف المرأة في حنانها ووجدانها ، وقوة المرأة في اعتقادها وإيمانها . . ومن عجب ان السيدة « هدى » التي تمتاز بتنبيهات على التعليم ، وتمدهنّ بأسباب دخول المدارس والانتظام في المعاهد — لم تدخل مدرسة في حياتها ، ولم تتعلم في معهد . . بل انتقلت المدارس اليها في قصر أبيها ، وجاءها المدرسون والمدرسات في معاهد طفولتها ومراتع صباها . . .

ومن أول أعمال هدى في سبيل البرّ اشتراكها في مبرة محمد علي التي دعت اليها الأميرة نعيمة المحياة زوجة الأمير حسين كامل ، تلك المبرة التي نجحت ومازالت تنجح في برعاية هذا

وهي أول مصرية نادت بالسفور عمليًا ، وتركت المحجبين يتناظرون ، والمجادلين يتناقشون ، ونزعت البرقع في صيف سنة ١٩٢٠ بعد ان عادت من تمثيل مصر في مؤتمر الاتحاد النسائي برومة ، وكان ذلك آخر عهدها بالحجاب

ونشاط صاحبة العصمة في سبيل المرأة المصرية ، وفي سبيل البر والاحسان ، لا يقف عند غاية ، ولا ينتهي عند أمد . فرأست « جمعية المرأة الجديدة » التي أسستها بعض المعلمات سنة ١٩٢٠ . وأسست في سنة ١٩٢٤ « الاتحاد النسائي » وهو نادٍ ومدرسة ومشغل . وتقيم من حين الى حين سوقاً خيرية لمشغل الاتحاد ، وهي سوق ناجحة رابحة

والسيدة « هدى » تُعطي ولا تتحدث ، وتحسن ولا تتكلم ، وتتصدق ولا تمنّ ، لأن الاحسان فيها لله لا لغرض ، والمعروف فيها للمعروف لا لوجه آخر ... تبرعت مرة بمبلغ الف جنيه « للمرأة الجديدة » ولم تذكر منهُ شيئاً ، وتتبرع غير ذلك بالمئات وعشراتها ، فلا تتحدث عن نفسها ولكنها لا تستطيع ان تجعل الناس لا يتحدثون عنها ... فلا قيمة عندها للمال ، ولكنهُ العمل الصالح يربي على الاعمال ، ويزيد على كل مال

بعد انتهاء حفل مي بأيام ، كنت عند صديقي وأستاذي أفلون بك الجميّل في مساء عاصف فيه من الحرب أنباء وأخبار ... واذا بهِ يريني رسالة من حضرة هاشم شعراوي تشكر لهُ اشتراكه بجهده ووقته في حفل تأبين مي . واذا بهِ يقول :— لست أدري يا أخي أينا أحق بالشكر وأجدر بالثناء ؟

فهدى شعراوي لم تَرَ فيما صنعتهُ هي ما يستحق شكراً او يستوجب ثناءً ، وهذا مثل منها في الانكار والايثار . ولكن عصمتها نسيت أنها خلعت من جلال شخصيتها ، ومعروف مكانتها على حفل « مي » ما أفاض عليهِ الجلال والوقار

فبدت « مي » في هذا الاحتفال في جلال الموت ، وخشوع الذكرى ، وسواد الاطار ، كما كانت تبدو في أدبها وكتبها وندبتها فرحة القلوب وبهجة الأنظار

***

١ — سألتها : (كيف عرفت ميًّا . وما أولى ذكرياتك عن مقابلتك الاولى لها ، وما الأثر الذي تركته في نفس عصمتك ؟)

فأجابت : ترجع معرفتي بمي الى ما يزيد على خمس وعشرين سنة ، وهي حقبة طويلة من العمر وقصة مديدة من الزمن كما ترى ، الا أنها قصيرة بالقياس الى مي ، والورود دائماً قصيرة

الأعمار، قليلة الآمال، وهل كانت مي الا وردة ناضرة مملوءة بكل معاني الحياة والقوة. وهل كانت مي الا زهرة من تلك الازهار الجميلة التي تتفتح ساعات أو أياماً في روض الحياة ثم لا تلبث أن يعاجلها الذبول، أو كوكباً متألقاً في سماء الدنيا ساعة ثم يدركه الأفول ؟

***

ترجع معرفتي بمي — بالضبط — الى شهر ابريل من سنة ١٩١٤. فقد كنا في ذلك الحين ننظم سلسلة من المحاضرات للسيدات في الجامعة المصرية القديمة

وكان يختلف الى بهو المحاضرات عدد مختلف من كرائم الاوانس وفضليات السيدات، دفعهن الشوق الى العلم، ورمى بهن الينا التوق الى المعرفة والثقافة. وقادهن مصباح من الأمل ... ذلك الأمل الذي كان يختلج في صدر المرأة المصرية في إبان حركتها وفي مقتبل نهضتها

وبينما أنا في سبيلي الى مغادرة بهو المحاضرات بعد القاء المحاضرة اذا بعيني تقع على فتاة تميزها من بين ذلك الجمع النسوي حركات رشيقة، وروح لطيفة خفيفة، وينبعث من عينيها السوداوين أشعة قوية من ذكاء خارق، وألمعية حادة، وفطنة نادرة

وتجتمع هذه الخلايل كلها في وجه جمّله الله بصباحة خاصة، وسمة متميزة، وميزه بأسارير مشرقة عن ابتسامات عذابٍ، كابتسامة الزهرة للشمس والماء والهواء في فصل الربيع . . .

ورأيت هذه الفتاة تقترب مني قليلاً، وتمد صوبي وتسترقني قائلةً (سيدي صدى : أنا معجبة بمشروعك مقدرة ما تبذلينه من جهد . لذلك أضع نفسي تحت تصرفك . ولا تظني يا سيدتي أني صغيرة لا استطيع المعاونة او لا اقدر على المساعدة . . . أنا كاتبة وشاعرة . أنا أكتب في الصحف وأنشر في المجلات . أنا « مي » ولا أظنك ياسيدتي إلا قرأت شيئاً مما كتبته . ألا تعرفيني ؟؟)

وكانت هذه الكلمات الصريحة المملوءة بالشجاعة الأدبية والاعتداد بالنفس والثقة بالشخصية، والتي تنم في الوقت نفسه على روح مفعمة بالنية الخالصة والقصد الحسن — كانت باعثتي على ان اضم تلك الفتاة الى صدري، وان أقبلها قبلة الاعجاب بها والرضى عن نبل مقصدها وشرف غايتها

وأبديت لتلك الفتاة التي عرضت نفسها لخدمة غرضنا النبيل إعجابي بمعرفتها وسروري

برؤيتها واغتباطي بانضمامها الى صفوف حركتنا كاتبة بقلمها ، وموحية بفكرها ، وملهمة بشاعريتها . . .

ولم يمنعني صغر سنها وحداثة عمرها من ان أرحب بانضمامها الينا ، ومن أن أتوقع منها الجهد الكبير والعمل العظيم . وهل يمنع السن الصغير فضلاً ، او تحجب الحداثة حكماً ونبلاً ؟ ألم يقل المتنبي الشاعر

فما الحداثة من حلم بمانعة قد يظهر الحلم في الشبان والشيب

ثم ألم يقل الشاعر الآخر

وربَّ صغير لاحظته عناية من الله فاحتاجت اليه الاكابر

٢ — فسألت عصمتها : (ما النواحي الجميلة التي كانت تعجبك من الفتاة مي والمميزات في الخلق وفي الخُلق التي امتازت بها ؟)

فكان الجواب : لقد رأيت في مي انساناً غير عادي ، لقد حباها الله — وهو واسع الفضل — بعقل كبير ، ولكن قلبها كان أكبر من عقلها . فقد كان ذلك القلب ينبوع حنان شتى من الرحمة والعطف والحنان . وكانت مي عالية النفس ، فما عرفتها تدنت الى دنية او تنزلت الى مستفل . وكانت واسعة الافق التفكير فما عرفتها وقفت عند حد محدود . وكانت بعيدة الادراك فما رأيت منها قصوراً فيه . ومع تلك الصفات المحبوبة ، والمزايا المرغوبة كانت بعيدة عن الغرور ، منزهة عن الانخداع ، فما عرفتها زُهيت بعلم او تاهت بذكاء او دلت بتفكير . ولكنها كانت تعرف قدر نفسها في تواضع جميل ، وبساطة محبوبة . ولم تكن مي على وسامتها ووضاءة وجهها جميلة بالمعنى الصحيح للجمال ، ولكن نفسها كانت أجمل من وجهها ، وروحها أجمل من صورتها . فكانت بين الجميلات لا تبدو أقل منهن فتنة ولا أسفل نصيباً من الجاذبية . لقد كان يجمل ميًّا بين الجميلات ، ويزينها بينهن شيءٌ خفي ومرموز مستبهم لعلهُ هو الذي حير الشاعر حين قال :—

شيءٌ به فتن الورى غير الذي يدعى الجمال ولست أدري ما هو

وليس في الأمر غموض سرّ مستغلق ولا لغز معمى . فسر جمال مي كان في روحها والجمال النفسي الروحي هو ضربٌ من الجمال يسمو على كل جمال

٣ — فسألتها : هل عرفت الثقافة الأوربية والحضارة الغربية ميًّا عن الأمثلة

الشرقية العالية ، وهل اندفعت مي في تيار المحدثين تذهب مذاهبهم في التمسك بكل ما هو غربي ، والتنصل مما هو شرقي ؟ !

فكان جواب عمتها : لقد وجدت في مي من الاعتصام بالشرق والحفاظ على الشرقية ما يجعلني أذكر مع الفخر أنها كانت المثل الأعلى للفتاة الشرقية المثقفة . لقد نهلت مي حقاً من موارد الغرب ووردت حياضه وأخذت كثيراً من طرائقه واتجاهاته ، ولكن ذلك كله لم يُنسها حق أهلها وفرض وطنها — وقد كان الشرق كله لها وطناً — فما أضاعت عادات أهلها ، ولا احتقرت تقاليد قومها ، ولا قنيت في الغرب كما يقنى فيه المستضعفون

لقد كانت مي معتزة بقوميتها ، مفتخرة بنسبتها ، متمكنة من لغتها العربية فاتحة للكثير من دقائقها وأسرار جمالها وكانت محافظة كل الحفاظ على شخصيتها الشرقية فما ضيعتها او زلت عنها او لبست ثياباً غيرها لا توائمها . وكانت عقائد قومها محل احترامها وموضع إكرامها ، فما غمزت او لمزت على نحو ما يفعل الغامزون اللامزون . ولكنها كانت تتألم لعيوب الشرق ، وتبكي على ضعفه المادي وتتمنى أن يتاح له من القوة المادية ما يكمل به سمو روحانيته

٤ — فسألتها : (ما رأي عصمتك في طريقة مي في كتابتها وتفكيرها)

فأجابت : كانت في مي دقة امتازت بها كتابتها ، واختص بها أسلوبها . ولم تكن إجادتها ميسرة ، ولا موضوعاتها مرتجلة ، ولكنها كانت وليدة البحث ، ونتيجة التمحيص . تكتب مي فترى الدقة في كتابتها والضبط في تعبيرها ، وتحاضر مي فلا تراها مسرفة في التعبير او مبذرة في الالفاظ . ولعل دراستها للغات الاجنبية قد مكنت لها من اسباب التدقيق والتمحيص

وكانت هذه الصفة من الدقة لا تفارق مي في أي موضوع طرقته او بحث عالجته ، حتى في كتاباتها العاطفية الخيالية ، فلم يكن خيالها شارداً تائهاً ، ولم تكن أحلامها في سبيل الشرق وهمية بل كانت تستند الى أفكار دقيقة وآراء محصة

٥ — فسألت عصمتها : (ما الآثار التي تركتها مي في الحركة النسائية في مصر)

فتنهدت بالجواب قائلة : لما عرضت مي عليَّ خدمتها لحركتنا سنة ١٩١٤ رحبت بها لما

لمحته فيها من الصدق ، وتبينته في كلامها من الاخلاص . وقد طابق فعلها — بعدئذٍ — قولها ، وصدق عملها حديثها . فلقد انضمت الى صفوفنا متواضعة الاخلاق ، قوية الروح عميقة التفكير ، وكانت تدهشنا جميعاً بالذكاء الحاد المتفجر من كل اشارة من اشاراتها ، او خلجة من خلجاتها ، او نبرة من نبراتها . وكان أكثر ما يدهشنا منها سمو روحها ودقة احساسها . فلقد كانت مي تتأثر لكل شيء ، وتحس بكل شيء . وكنت أخشى على المكينة من اجتماع هذه المميزات فيها . نعم كنت أخشى ان يجني عليها ذكاؤها ، او يقتلها نبوغها ألم يقل الشاعر « ذكاء المرء محسوب عليه » .

نعم كنت أفزع من ان تصطلح عليها هذي القوى الجبارة العنيفة التي كان قلبها وروحها وجسمها موزعة بينها ، وأخشى ان تهدها تلك القوى هدًّا ، وتدكها دكًّا ، وتحطمها تحطيماً

لقد انضمت مي الينا عاملة مجاهدة ، تسبق الصفوف وفي يدها قلمها ، وبين حناياها قلبها وفي القمة منها رأسها وتفكيرها ، ولكن أفقنا المحدود في الجهاد ضاق أمام عينيها البعيدتين في مراميهما وفي مداها . وعالمنا المحدود في حركتنا الفنية عجز عن أن يتسع لاصلاحها وآمالها وأدبها وشاعريتها ، فاتجهت الى ميادين الأدب والاجتماع يدفعها نبوغ خاص وعبقرية نادرة ، يهيء لها ذلك استعداد فطرى حبتها به الطبيعة ، فاهتزت لها أعواد المنابر خطيبة بارعة ومحاضرة لبقة . وعطرت كل نادٍ بشذا من أحاديثها . وتركت حيثما حلّت أثراً طيباً . وأخذت مي الكتابة تنهمر كتاباتها في الصحف وتتدفق خطبها على المنابر ، وتتوالى كتبها في سوق الادب مترجمة مرة ، ومؤلفة أخرى . ولم تفصل مي جنس جنسها ، وفرض اخواتها ، فكان للمرأة من ابحاثها الأدبية نصيب ، ولعل دراستها العميقة الممتعة ، المملوءة بكثير من التقصي والدقة عن وردة اليازجي ، وعائشة التيمورية ، وباحثة البادية (ملك حفني ناصف) لعلّ تلك الدراسات التي نشرت في المقتطف وطبع بعضها مستقلاً في كتاب هي مظهر من مظاهر وفاء مي لبنات جنسها ، وحرصها على اظهار فضلهن أينما وجد . على أن مكان مي «الفتاة» في الادب ومحلها في الكتابة والتأليف لم يعلِ شأن المرأة الشرقية طمة والمصرية خاصة . فهو مكان رفيع تغتبط به حركتنا النسائية وتعده دليلاً آخر ساطعاً على مكان المرأة

فلم يكن مجد مي لها وحدها ، ولم تكن شهرتها خاصة بها ولكنهُ مجد تفتخر به المرأة الشرقية ، وشهرة تتمتع بها كل ناطقة باللغة العربية

٦ — فسألت عمتها : (كانت مي تميل الى الاحزان في كتابتها ويبدو ذلك في مقدمة كتابها الذي ترجته عن الالمانية لفردريك مكس مولر . فهل كان الحزن طبيعة فيها أم عارضاً عليها؟)

فأجابت : لقد عرفت ميًّا في ريعان شبابها وإبان نشاطها ، عرفتها والقوى الجبارة تتنازع جسدها وقلبها وروحها . وكنت دائمة قلقة عليها — خائفة أن تعصف بها تلك القوى العنيفة فتذبلها قبل أوانها ، أو تقضي عليها قبل حينها

وكنت أخشى أن هذه القوى الموحية للصم المصلاب قد تؤثر في نفس مي اسوأ الأثر اذا ما رماها الزمان بنكبة ، او ابتلاها بمحنة . وقد كان ذلك . فقد أصيبت مي بفقد والديها وكان فقدهما تباعاً — كأنهما كانا على ميعاد قريب — فأثرت في التأثر ، واستسلمت الى الأحزان تطغى عليها والهموم تأكل قلبها واللآلام المضنية المبرحة تعصف بها في كل لحظة وتلازمها في كل خطوة

وآثرت مي الاجتماعية المحبة للناس التحدثة الى الجماهير ، أن تركن الى العزلة تجد فيها عزاءها ، وتستسلم الى الوحدة تلتمس فيها راحتها

واستأنست مي بوحشتها ، واجتمعت مي بوحدتها وعزلتها وكانت فذة في أحزانها ، غريبة في همومها وآلامها كما كانت فذة في عبقريتها وبين بنات جنسها

وظلت كذلك في هموم مقيمة مقعدة ووساوس باقية ثابتة ، تخاف من الهمس ، وتفزع من الشبح ، وتُذعَر من الانس حتى ملت عليها الاحزان ، واصطحبت عليها العلل — العلل النفسية المبرحة — علل العقل والجسد — ووقفت القوة التي كانت تمدها بالحيوية ، وجفت الينابيع التي كانت تغذيها بالماء ، وأظلمت الآفاق التي كانت تشع امام عينيها السوداوين النور والبهجة والضياء

وصارت كالزهرة لا شمس ولا ماء ، ولا ضوء ولا هواء فذبلت وكان ذبولها أليماً ، وتساقطت اوراقها ورقة اثر ورقة

ولكن شذا الزهرة مازال منتشراً وأريج الزهرة مازال عبقاً وسيظل المتفقون والمؤدبون ، والكاتبون والمفكرون يذكرون تلك الزهرة التي عوجلت قبل الاوان ، وخطفت قبل الحين.

فاذا مروا بروضة من رياض الفكر ، أو حقل من حقول الأدب ، تعرفوا على مكان هذه الزهرة وقالوا (هنا مكان زهرة ذابلة ولكنها ما تزال فواحة الأريج)

حضرة صاحب العزة

الدكتور طه حسين بك

مراقب الثقافة العامة

في حفل تأبين مي وقف رجل متزن الخطوة ، هادىء الوقفة، يبدو على ملامح وجهه آثار حزن عميق وألم دفين

وقف هذا الرجل ، وكثيراً ما سمعناه على المنابر محاضراً من طراز رفيع ، وفرار طال ، وقف تلك الليلة من مساء ٤ ديسمبر يستهل الكلام بشعر عربي رصين

لم يكن هذا الشعر شعره ، ولم يكن الرجل في تلك الليلة الا راوياً أبياتاً أعجبته من ذي الرُّمة ، فراح يلقيها في أداء حسن ، والقاء متئد ، يخرج الحروف مخارجها ، ويعطي الكلمات قيمها . وقف هذا الرجل ينشد هذه الأبيات :

خليلي عُدّا حاجتي من هواكما ومن ذا يواسي النفس الا خليلها ؟
ألما بمي قبل أن تطرح النوى بنا مطرحاً او قبل نَيْئ يزيلها
فإلا يكن الا تعلل ساعة قليلاً فاني نافع لي قليلها

وكثير من السامعين لم يعلموا أن هذه الأبيات لذي الرُّمة الشاعر الاموي ، وكثير منهم ظن ان الدكتور طه حسين انقلب شاعراً بعد أن رسخت في النثر قدمه وعلت في الكتابة مكانته

ولكن قليلاً من هؤلاء السامعين أدرك أن طه حسين ينشد هذه الأبيات الثلاثة في حفل مي ابنة القرن العشرين ، وهي أبيات قيلت في مي ابنة العصر الاموي

وقف الدكتور طه حسين في حفل تأبين مي يستعرض ماضياً جميلاً طويلاً ، حافلاً بنفيس الصور ، وبديع الآثر

وقف يصف كيف عرفها في الجامعة القديمة سنة ١٩١٣ حيا وقت تعقب على كلمة أرسلها الشاعر الناثر جبران خليل جبران من نيويورك لتكريم الشاعر خليل بك مطران

وقف يصفها في اقبالها على العلم وإكبابها على الدرس ، والحاحها على طلب المعرفة من مظانها ، ولمكنة من مواضعها

واعتذر الدكتور عن مجانبة التفصيل في الحديث عن مي يوم تأبينها لان ذلك يقتضي درساً لم تهيأ له هذه الاجتماعات التأبينية والحفلات التذكارية التي يراد بها الوفاء والتذكر ، وارسال التحيات من القلوب المخلصة لتصل الى النفس المخلصة

ولقد كان الدكتور جميلاً في وفائه لي ، نبيلاً في اخلاصه ، وكان منصفاً لها حين سجل حسنتين من حسناتها وأشار بنوع خاص الى أثرها في حياتنا الادبية : الاولى منتداها الذي كان ملتقى المثقفين ومجتمع المفكرين من أهل مصر وسوريا ، ومن أهل الشرق والغرب ، ومن رجال العلم والأدب . والثانية تأثرها بالمحاضرة التي القاها احمد لطفي السيدباشا في نادي المدارس العليا عن أبي العلاء وأخذها موضوع المحاضرة على انهُ موضوع جدير بالتفكير

وختم الدكتور طه حسين كلمته في تأبين مي بالابيات التي افتتحها بها ، وكرر البيت الأخير مرة ثالثة وهو

قالاً يكن إلاَّ تعلل ساعة قليلاً فأني نافع لي قليلها

***

..... وانتهى حفل مي ، وانصرف الناس بعد ما أدوا واجب الوفاء لفتاة كان من طبعها الوفاء لوطنها ولغتها وجنسها ، وانتقلوا من جوٍ كان يسوده الجلال وتخيم عليه الرهبة ، ويغشيه السكون الى جو امتلأ بالمناقشة والمجادلة . . أي الخطباء أجاد ، وأي الشعراء أصاب ، وأي النواحي من حياة مي أغفلت ، وأي المسائل أهملت ....

وتقدمتُ من الدكتور أصافحه باليد ، وأحييه باسم المقتطف ، وأذكر له اسمي ولا أعرف ان كان له ذاكراً أم ناسياً ؟ فألقى مِنهُ اللقاء الجميل ، والرد الجميل ، ويتفضل باجابة دعوة «المقتطف» الى الحديث ولكن يؤجلهُ الى يوم يقل فيه الشغل ، ويتسع فيهِ الوقت وتوالي فيهِ أسباب الحديث

ويجلس الدكتور طه حسين بك في قاعة من قاعات الاتحاد النسائي ليستمع الى حديث من السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي ، ويجلس بجانبه خليل بك مطران وبعض السيدات ، وأتخذ مكاني قريباً منهم لأسمع صوت طه حسين مِنْ قريب كما سمعته «من بعيد»

ليست صناعة الاحاديث مع الرجال — وخاصة كبارهم وأهل المكانة منهم — عملاً هيناً او أمراً يسيراً ، ولقد شرفتني «المقتطف» بانابتي عنها في الحديث مع نفر من أهل الأدب والفضل ممن كانت لمي صلات وذكريات

وليست ظروف التحدث مهيأة في كل وقت وفق رغبة الراغب ، وأمل الطالب ، فهناك قد تكون المشاغل والشواغل ، وهناك اينما قد تكون العقبات والحوائل ....

ولكن مشاغل الدكتور طه حسين لم تمنعه من التفضل بالحديث في الوقت الملائم

وأسلوب الدكتور طه حسين — سواء أستحدثاً كان أم كاتباً — هو أسلوب السلاسة واليسر فلا يتكلف لفظاً ، ولا يتصنع عبارة ، ولكنهُ يجري على نحو من السهولة يظن القارئ أو

السامع انه مستطيعها، وينتهي الى غاية من السلاسة يخيل الى من يراها انه مدركها ، فاذا دون ذلك أهوال

والدكتور طه حسين يتأبى على كل قيد ، ويمتنع على كل ارادة غير ارادته

وضعت له بضعة أسئلة تجلي بعض الغوامض من حياة مي ، وتعلل بعض ما أجمله القائلون عنها ، فلم ترُقْه طريقة السؤال والجواب وآثر عليها طريقة الحديث المرسل والكلام المطلق ..... وهو في هذا يشبه خليل بك مطران الذي لم يلتفت الى أسئلتي المسلسلة ، وآثر ان يسمعني في ساعة وبعض ساعة حديثاً عن مي الشاعرة لم أتطعه عليه بسؤال واحد

كان الدكتور طه حسين من المعجبين بمي المترددين على «صالونها» وله في هذا «الصالون» ذكريات سيتحدث عنها فيما يلي من القول

وكان الدكتور يعجبه من هذا «الصالون» الساعه لمذاهب القول واشتات الكلام وفنون الأدب ، ويعجبه منه أنه مكان للحديث بكل لسان ومنتدى للكلام في كل علم ، ومنتى لطوائف من غير تفريق . فلا تعالي بينهم ، ولا اختلاف فيهم ، بل هم أهل ندوة واحدة ألفهم الأدب ووثقت بينهم المعرفة وجمعتهم الحكمة يغدون ويسرون في أخاء تالد على اختلاف مذاهبهم وتباين مشاربهم ، وتفاوت مراتبهم . فهم كما قال أبو تمام

إن يكُدِ مطّرف الأخاء فإننا نغدو ونسرح في أخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فإننا عذبٌ تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسبٌ يؤلّفُ بيننا نسبٌ أقمناه مقام الوالد

وكان أشد ما يغتبط له الدكتور طه حسين أنه وجد الطريق الى منتدى مي ميسوراً ، لم تحفه الأهوال ، ولم تدمّ من اجله الأقدام ... وصل اليه وهو طالب في مطلع الفتوة لم تنعقد له ألوية الشهرة ولم تثبت له بعد مرتبة الأديب . وفي هذا الحديث استمع الذي تفضل به على «المقتطف» صور من حياة مي بعضها بهيج ، وبعضها مؤلم حزين

ولكن ميّا قد ماتت كما ماتت سيّدات الأموية من قبل ، وكما تموت سيّدات بعد ، فأين البقاء لله ، ولأجسامنا الفانية العفاء والدثور ....

ولكن ذكرى مي ستظل خالدة ومصاحبة الأموات بالذكرى — ولو ان بيننا وبينهم جنادل وصفائح — هو نوح جبيل من الصحبة الدائمة والعشرة الباقية وصف الدكتور طه حسين نفسه بقوله : [وما أعرف شيئاً أوفى في العشرة ، وأحرص في المصاحبة من الموتى اذا كانوا أعزاء على نفوسنا ، وكانوا يترلون في قلوبنا] وفيما يلي حديث عزته : —

ظهرت مي في حياتها الادبية مظهرين مختلفين أشد الاختلاف وأثرت بهذين المظهرين نفسها في الحياة الادبية العربية تأثيراً عميقاً جداً. ظهرت بعض صوره اثناء حياة مي وستظهر بعض صوره الاخرى بعد وفاتها بزمن قصير أو طويل. فأما اول هذين المظهرين فهو مظهر الأديبة البرزة التي لا تحتجب ولا تستحي ولا تلقى الرجال عند المناسبات وحين تقتضي الظروف لقاءهم، وانما تنظم الاجتماعات الادبية التي يشترك فيها الرجال والنساء اشتراكاً حراً سمحاً فيه كثير جداً من الرقي والامتياز. تنظم هذه الاجتماعات في بيتها وتشترك في كل اجتماع يشبهها اذا كان خارج بيتها. وليس من شك في ان الصالون الذي تستقبل المرأة فيه رجالاً يتحدثون فيما يتصل بالحياة العقلية من قريب او بعيد لم يكن جديداً في حياتنا العربية بل لم يكن جديداً في حياتنا المعاصرة. فقد عرف هذا القرن الذي نحن فيه صالونات من هذه الصالونات على الاقل، كان بعيد الاثر جداً في حياتنا السياسية والاجتماعية. وهو صالون الاميرة نازلي رحمها الله. فقد كانت تستقبل في دارها بعابدين كبار المصريين والاوربيين. وكانت الاحاديث في هذا الصالون تتصل غالباً بالمسائل السياسية ومسائل الاصلاح الاجتماعي والديني التي كان الناس يشغلون بها في ذلك الوقت. وكان سعد وقاسم ومحمد عبده وحسن عبد الرازق وحسن عاصم يشهدون هذه الاجتماعات ويختلفون فيها ويشاركون فيما كان يدور فيها من الاحاديث. وكانت آثار ذلك تظهر في الحياة العامة لهؤلاء الناس. ولكن صالون الاميرة نازلي كان ارستوقراطياً ان صح ان الارستقراطية توجد في مصر، وهو على كل حال كان ضيقاً منغلقاً لا يصل اليه الا الذين ارتفعت بهم حياتهم الاجتماعية الى مقام ممتاز. ولم تكن الحياة الادبية الخالصة تشغل الذين كانوا يختلفون الى هذا النادي

فأما صالون مي فقد كان ديمقراطياً لو قلنا انه كان مفتوحاً لا يُرَدُّ عنه الذين لم يطمعوا انفسهم المقام في الحياة المصرية وربما كانوا يحسون اليه وربما كانوا يتدرجون اليه استدراجاً فيلقون الناس ويتعرفون الى اصحاب المنزلة الممتازة ويكرمون هذه المنزلة في تكريمهم وتحية مقدمهم وترشيق أذواقهم. وأنا اذكر أني أنا اتصلت بالصالون مي على هذا النحو بعد ان توقفت [illegible] في أيام الحرب وشيعت [illegible] في الاسكندرية الى الباخرة التي أقلتها في الرحلة حينئذٍ وطلبت الى استاذنا واستاذي لطفي السيد ان يشرب في صاغونها. وكذلك عرفتها في هذا الصالون وترددت عليها في أيام الثلاثاء الى أن سافرت الى اوربا. وقد رجعت الى مصر بعد سنة فأقمت فيها اشهراً ولاقيت فيها مي في ايام الثلاثاء كما كنت ألقاها قبل السفر. وكان الذين يختلفون الى هذا الصالون متفاوتين تفاوتاً عديداً فكان منهم المصريون على تفاوت طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية وعلى تفاوت أسنانهم أيضاً. وكثر منهم السوريون وكان

منهم الأوربيون على اختلاف شعوبهم وكان منهم الرجال والنساء، وكانوا يتحدثون في كل شيء ويتحدثون بلغات مختلفة وبالعربية والفرنسية والانكليزية خاصة . وربما استمعوا للعميدة تنشد او مقالة تقرأ او قطعة موسيقية تعزف او أغنية تنفذ الى القلوب . وقد أتيح لي ان أكون من خاصة مي بفضل الاستاذ لطفي السيد فكنت أتأخر في الصالون حتى ينصرف الزائرون وما أكثر الليالي التي انصرف فيها الزائرون جميعاً ولم يبق منهم الا الاستاذ لطفي السيد ومحمد حسن نائل المرصفي رحمه الله وأنا . وفي ذلك الوقت كانت مي تفرغ لنا وتفرغ لنا حرة سمحة ، فنسمع من حديثها ومن انشائها ومن عزفها ومن غنائها . ويظهر أني لم أنسى بعوت مي حين تغنينا أغنية لبنانية مشهورة « ياحمية » وتغنينا في اللغات المختلفة وفي اللهجات العربية المختلفة ايضاً

***

وقد اتصلت حياة مي على هذا النحو بمؤثرة هذه الاجتماعات المنظمة في البيئات المختلفة للادباء والمتأدبين والمفكرين ورجال الاعمال ايضاً . اتصلت هذه الحياة اعواماً غير قليلة وظهرت آثارها في كثير من انتاج هؤلاء الناس . وما أشك في ان صالون مي قد اتخذ مثالاً لصالونات اخرى فتحت ابوابها فيما بعد . فمي قد أحيت هذا الصالون سنة عربية قديمة كما نقلت الى مصر سنة اوربية قديمة وحديثة فهذا هو المظهر الاول لحياة مي

***

أما المظهر الثاني الذي اشرت اليه فهو مظهر مي التي آثرت الوحدة وآلمت على نفسها في العزلة وقد مضت في طريقها الى العزلة مضطرداً وفيقاً او قل انها تدرجت في هذه الطريق تدرجاً بطيئاً اول الامر ولكنها سريع ملحوظ آخر الامر . أخذ سبيلها الى العزلة يظهر بعد ان فقدت ابويها ، وبعد ان ضمر الحزن نفسها المضرقة، ولكنها لم تقطع صلتها بالناس جملة وانما قللت لقاءهم وتجنبت ما يدعو الى هذا اللقاء وأخذت لا تلقى الناس الا بميعاد يطلبونه وتستشار بمذكرات لتحديده . وأخذت المذكرات تبخل بهذا التحديد شيئاً فشيئاً حتى اصبح لقاء مي مقتصراً على اصدقائها الادنين ، وكنت بين الذين تعرفني في هذه الصداقة فكنت القاها في حين وحين فنستخلص لأنفسنا من الدهر واحداثه ساعة او ساعات نتحدث فيها ادباً وفلسفة جادّين حيناً ومازحين حيناً آخر . وكان سكرتيري ثالثنا في هذه الاجتماعات . وكان لنا رابع يحضرنا دائماً ولكنه لم يكن يفهم عنا . ويعلنا نحن كنا نفهم عنه كثيراً وهو ذلك الابريق الذي كان ممتلئاً دائماً من شراب الورد . والذي كنا نسقيه غيرة في هذه الجالس العذبة المرة . فقد كانت هذه الجالس مرة في كثير من الاوقات . ذلك ان مياً كانت في طور

الحزن اللاذع والالم المُمض والتشاؤم الذي كان يسرع اليها كما كانت تسرع اليه وطالما دافعت عنها هذا التشاؤم وطالما حاولت ان أرد عنها هذا الحزن المرّ ولكن لم أكن أدنو الى النجاح الاّ ليردني الاخفاق عما كنت أريد ردّاً عنيفاً . وكنت اريد ان استنقذ ميّا من تشاؤم ابي العلاء كما كنت اريد ان استنقذها من الاسراف في التأثر برجال الدين . ولكن ابا العلاء ورجال الدين كانوا أقوى مني ومن غيري ايضاً . وربما كان أظهر شيء لوم حياة مي في هذا الطور من أطوارها حبها لحياة القدماء وآثارهم ونتاجها في قراءة التاريخ وحرصها على زيارة الآثار والوقوف امامها صامتة مرة ومتحدثة اليها أو متحدثة عنها مرة أخرى . وقد ألححت عليها غير مرة في الخروج من دارها للرياضة فكانت تمتنع وتأبى، ولكنها قالت لي ذات يوم إن كنت تريد أن أخرج فاصحبني الى الهرم فاني أحب أن أشهد هذه الآثار وان أقف موقف عبرة واتعاظ امام ابي الهول . وقد صحبتها الى هذه الآثار غير مرة وكانت احاديثها عن الروح المصري القديم من أروع الاحاديث وأعمقها تأثيراً في النفوس . ثم تنخفف ميّ من علاقتها الاجتماعية شيئاً فشيئاً ويصعب علينا حتى اقناعها بشهود الاجتماعات التي كان يعقدها نادي القلم . ويحتمل الاستاذ خليل ثابت مشقة عظيمة في اقناعها بحضورها بعض هذه الاجتماعات . وتسافر ميّ وتعود وقد قطعت صلاتها بأكثر الناس وكنت منهم . واذا هي تؤثر ان تلقاني في كنفي وفيما اثر من النصول . ثم يأتينا نعي ميّ ذات صباح

هذه العزلة التي آثرتها ميّ في آخر حياتها لم يقتصر أثرها على ميّ وحدها وقد ذاقت مي مرارتها وبلت آلامها، ولكن الناس كانوا يعرفون هذه العزلة وكانوا يعرفون ما كانت ميّ تحتمل فيها من الالم وكانوا يألمون لها ويضيقون بها ولكنهم كانوا يفكرون فيها ويتلمسون لها ألوان العلل في حياة ميّ العقلية وفي المثل الأدبية التي كانت تنظر فيها ميّ كثيراً

وقد يكون من الغريب أن نلاحظ أن ميّا بهذين المظهرين المتناقضين من مظاهر حياتها قد أحيت سُنّة « خرقاء » وهي التي قال فيها الشاعر القديم

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام

فلم تكن زيارة القاهرة تتم دون لقاء مي ، كما أحيت سنة ابي العلاء بمزلتها تلك ومن المحقق ايضاً ان الادب العربي القديم قد انتفع بسنة خرقاء كما انتفع بسنة ابي العلاء . ومن المحقق ايضاً ان الادب العربي الحديث قد انتفع وسينتفع بهذين الطورين من اطوار حياة مي . رحمها الله

حضرة الاستاذ

عباس محمود العقاد

عضو مجلس النواب ، ومجمع فؤاد الأول للغة العربية

للاستاذ العقاد مقام معلوم في عالم الأدب ، وممتاز كتبه وكتاباته بعمق التفكير ، وغزارة الاطلاع ، وهو على كثرة انتاجه في التأليف ما يزال يتحف الصحف الأدبية بمقالات تعجب الذين يتابعونها ، جمعت الى قوة الأسلوب وشدة أسره ، الوضوح والنصاعة في التعبير عن الفكرة وتصويرها

وكان الاستاذ كثير الصلات بمي ، صداقة وتقدير ، وأعجب بذكائها وألمعيتها ، وعندها عنها معين من الذكريات لا ينضب ، وفيض لا يغيض . حديثه عنها حديث المبهور الخبير . وما احتاج في خلال الاسئلة الى أن يكد ذهنه في استحضار ماضٍ بعيد ، او الاستشهاد بحادثة معينة . وقد خيل اليّ وأنا أصغي اليه انه استعرض ماضي مي لحظة فلحظة ، وأن صور الأيام كانت تمر بخاطره سريعة متعاقبة

ويحتفظ العقاد بكل ما كتبت « مي » من مؤلفات ولقد رددت اليه — حين ألمت عليها العلة ، واصطلحت عليها الهموم — جميع رسائله اليها ، كما رددت الى غيره ممن راسلوها رسائلهم ولقد أطلعني الاستاذ على جملة هذه الرسائل ولم يطلعني على تفصيلها . أما رسائلها اليه فقد ردها اليها وهي محفوظة معه مما وجد عندها من مخلفات وآثار . ولعله مرجئ بما وعد من الكتابة عن « مي » هو أولى الناس بالكتابة عنها ، وأجدرهم بالتحدث عن أدبها وفنها ، وعبقريتها ونبوغها ، وأقدرهم على تصويرها وهي تدير الأحاديث ، وتوجه الكلام

يؤمن بعض المشتغلين بالآثار والمنقبين في الصخور والصمّ ، وفي الرمال الصفر ، الكاشفين عن الكنوز المكنونة والجثث المدفونة ، بأن للموتى لغات قد تنصب على الكاشفين وسخطات قد توجه الى المنبشين المغارين فتصيبهم منها نكبات أو تدركهم بسببها المعاطب

وأنا أومن بأن للموتى — الى ذلك — رحلات تمرّ النار اللاحقة فتبرد وتلمس الصخور القاسية فتلين وأن لهم نفحات من عالم الغيب ، ومن وراء الحجب ، تخترق الاستار وتمزق الغشاوات فتنفذ الى أرضنا تنشر فيها المحبة ، وتشيع فيها الرحمة ، وتصل الوداد المقطوع والحبل المصروم ، وتؤلف بين القلوب وتجمع بين البعيد والقريب ...

وكانت « مي » أحسن الله اليها . فقد أتاحت لي ان أرى « العقّاد » بعد

غياب سنوات . . . وان استأنس الى « العقّاد » بعد وحشة سنوات . انها « كرامة » من « مي » . وفضل من رئيس تحرير المقتطف . ونبل من « العقّاد »

ولقد عرّفتني « مي » الى العقاد من جديد ووصلني روحها من عوداً على بدء . فاذا بي في داره في « هليوبوليس » كما كنت بالأمس البعيد في مكتبه « بالبلاغ الأسبوعي » واذا بي أستمع الى صوت «العقاد» الذي طال عليّ العهد به

واذا بالعقاد يجيب عن كل سؤال من أسئلة وضعتها لعين « مي » واذا بي ألمح من ثنايا كلامه ومن خلال حديثه ألم الحسرة ، وحُرَق اللوعة لفقد « مي » . فهو يتحسر على مي في نقدها ، وعلى الحلو من حديثها ، والشجيّ من لحنها . ويتذكر « ميًّا » في الماع ذكائها ، ونافذ رأيها ، واستواء حجتها ، واعتدال فكرها . ويعجب أين ذهبت هذه البشاشات ، وولت هذه القسمات والطفاً ذلك الشعاع وجفت هذه الورقات وطويت عنه المنحنات .

لا تعجب أيها الاستاذ ! فانك من روى الاخبار وعرف الأسرار ، وقد أجبت أنت نفسك عن هذا السؤال حين قلت في شطر حافلٍ بالحكمة والحسرة من قصيدتك في رثاء مي :

« كل هذا في التراب آه من هذا التراب »

***

١ — سألته : (ما أحب كتب مي الى نفس الاستاذ : فأجاب بما يأتي) :

(باحثة البادية) يمثل اكبر جانب من تفكيرها وطبيعتها وأسلوبها . واعتقد أن الآنسة مي كاتبة معتدلة بعيدة عن التطرح في الأثيريات والخياليات . فهي أقرب الى المحسوس الذاتي منها الى الخيال البعيد ولذلك كانت في حياتها كلها أقرب الى المحافظة والى التمسك بالتقاليد . فالفرق بعيد بينها وبين كاتب مثل جبران خليل جبران فهو يمثل الخياليات ويسبح في الأثيريات . وليس في كتابتها جنوح الى الغموض او ميل الى اصطناع الأسرار على النحو الذي يشاهد في كتابات بعض أدباء المهجر وخاصة جبران

وانا يلاحظ انها كانت تعجب بجبران . وكانت تناقشني في نقدي اياه ، فكنت أقول لها ان اعجابك هذا انما هو اعجاب المناقضة لا اعجاب المماثلة . وأعني بذلك أن الانسان انما أن يعجب بصفة فيه موجودة في غيره على شكل أعظم وأوسع . وإما أن يعجب بصفة ليست فيه ولكنه يرجو أن يتصف بها ، أو يكمل صفاته باضافتها اليها . فمي في وضوحها واستقامة تفكيرها وبعدها عما سميناه بالأثيريات والخياليات هي في الواقع نقيض جبران — وان كنت لا أنفي قدراً في هذا الكاتب الذي له ولا شك منزلته في الأدب ومزاياه في الكتابة

٢ — فسألته : (في الطبعة الاولى من ابتسامات ودموع تصرفت مي في ترجمة الكتاب عن فردريك مكس مولر الالماني وفي الطبعة الثانية تقيدت بالاصل معنىً وتعبيراً كما تقول هي نفسها في المقدمة . فهل كان لهذا العدول رأي خارج عنها؟ أم فعلته مختارة؟ وما رأيكم في تصرف الكاتب فيما يترجمه؟)

فكان جوابهُ : لا أذكر أن هناك نقداً وجه الى الترجمة الاولى ، أو لعلي قرأت نقداً وغاب عني . انما أعلم انها رحمها الله ، كانت شديدة التزمت بالنقد وكانت تتقيه كثيراً ولو تبين لها أنهُ صادر عن نية حسنة . فاذا حدث أنها تعرضت للنقد في سبيل التصرف في الترجمة فاني أعتقد أن هذا لما أعلمهُ من مزاجها ، وحدرُها كان للعدول عن هذا التصرف أو لاستدراكه اذا أتيح لها أن تستدركه

أما رأيي في تصرف المترجم بالترجمة فهو أنهُ جائز على شريطة أن المؤلف يقبل هذا التصرف لو عرض عليهِ . وليس غرضي بالطبع أن يتمَّ العرض فعلاً ، ولكني أريد أن خير تصرف هو الذي يرضاه المؤلفون ويعتقدون انهُ لا يخرج بالمعنى عما أرادوا

٣ — فسألته : (اذا كانت الطبيعة الجميلة قد استهوت ميًّا كما تحدثت هي كثيراً عن ذلك في بعض كتبها ، فهل تعرفون لها قبل اضطرابها الاخير حادثاً خرجت فيه عن العالم المدني الصاخب الى العزلة الوحيدة الدائمة في أحضان الطبيعة كما فعل (ثورو) و(لويل) في أميركا ، وكما فعل (وردسورث) في منطقة البحيرات بانكلترا ؟)

فأجاب : كل ما أعلمه انها كانت تتحاشى ان تخرج الى الطبيعة منفردة لما عسى ان تتعرض لهُ بسبب ذلك من اجتراء بعض العابثين ، ولو كانت تعتبر كل فرصة آمنة للرياضة في ضواحي القاهرة وبعض المنازل القريبة منها . كان حبها للطبيعة يتجلى في هيامها بمناظر الغروب أو مناظر السحب وهي مشرفة عليها من حجرتها في بيتها ، حتى كانت تؤثر ان تجلس في هذه الشرفات أيام الشتاء اذا لم يمنعها البرد القارس من الجلوس فيها

وكانت تتمنى ان تزور مصر وصعيدها الأعلى خاصة لتستمتع بما تتخيله من روعة المناظر الطبيعية فيها ، وكثيراً ما سألتني أن أصف لها تلك المناظر ، وان أريها اياها في رحلة

شتوية كانت — رحمها الله — تفكر فيها كثيراً ولا تظفر من الوقت بما يمهد لها أسبابها ، على ان حبها للطبيعة كان محدوداً بما فطرت عليه من الاحجام والانحراس ، ولولا ذلك ما انقطعت عن غشيانها كما يغشاها كل محب مشغوف بها

٤ — فسألته : (على ذكر الدفاع عن الديمقراطية الآن والمحنة التي تمتحن بها أمم نسألكم رأيكم في الفصل الذي كتبته مي في كتابها المساواة)

فأجاب : أذكر اننا تناقشنا في الديمقراطية مرات ولم نكن على وفاق في كل مرة . وان كان خلافنا على هذه المسألة أقرب الى الفكاهة منه الى الجد والتباين الصحيح في الآراء . فمن ذلك — وكنت أرشح نفسي للانتخاب — أنها أشارت الى حق المرأة في الانتخاب للمجالس النيابية . فقلت لها : اني لو ملكت الامر ما سمحت للمرأة بهذا الحق . قالت ولم ؟ فأجبتها لاعتقادي ان المرأة بفطرتها غير ديمقراطية فأنكرت ذلك اشد الانكار ، وصحت اسألها

تُرى لو أعطيت أنت حق الانتخاب — وأنت مي التي لا يشبهها كثيرات من النساء — ثم ذهبت الى الصندوق وذهب اليه مرشحان أحدهما يسير على قدميه والآخر يركب سيارة فخمة من أنفس طراز فهل تظنين انك تفضلين المرشح السائر على قدميه ، أو تفضلين المرشح صاحب السيارة الفخمة ؟ قالت : — لعلي أفضل الأول اذا كان مستحقاً للتفضيل . قلت : — بل لعلك تفضلين الآخر على كل حال . . . فتظاهرت بالغضب . والتفتُّ الى السيدة والدتها وكانت تسمع حديثنا . أسألها : ما رأيك يا سيدتي فيمن تؤثره كريمتك بالتفضيل ؟ وأنت أعلم بها مني ؟

فضحكت وقالت : الحق ان كل امرأة تفضل راكب السيارة على السائر الى صندوق الانتخاب بقدميه . وهنا عادت الآنسة مي تقول : — ولِمَ تظنون ان امرأة مخطئة حتماً في هذا التفضيل ؟ ألا يمكن أن يرجع هذا الى بداهة فيها توحي اليها ان تختار من تستقر على يديه الامور ويبتعد بالامم عن القلاقل والازمات ؟

وانتهى الحديث بيني وبينها بتوكيدي لها ان حكم السراة والنبلاء كان — في أكثر العصور — مثار القلاقل والثورات . وما قامت ثورة قط الا على أثر حكم يطغى فيه هؤلاء النبلاء

وفي مرة أخرى كان قيصر روسيا متوضأ عليه في انتظار المحاكمة او النفي الى مكان بعيد . وكانت مي تشايع القيصر وترثي له وتغضي على خصومه أن خلعوه واعتقلوه . فكنت أقول لها : اني لا أود الالم والشقاء لانسان ، ولاسيما اذا كان هذا الانسان بين أهله وأسرته ولكني كما ذكرت القيصر سفيكاً لم يسعني الا أن أنعي رجلاً عظيماً مثل « دستويفسكي » وهو

منفي في سجون سيبريا . ولم يسعني ان أنسى ألوف العمال الذين قتلوا أمام قصر الشتاء تأييدي حراس القيصرة . فإن مصائب الكبار لا تنسينا مصائب الصغار . وربما كان الكبير مسؤولاً عن مصيبته ، ولم يكن الصغير مسؤولاً لا عن مصابه ولا عن مصاب الآخرين . وختمت حديثي معها — رحمها الله — بسؤال لم أجب عليه وهو : هل تظن ان خصوم القيصر سيرحمون العمال أو يعاملونهم خيراً من معاملة حراس القيصر ؟ فقلت : علم ذلك عند المستقبل . وعلى هذا النمط كانت تجري مناقشاتنا في موضوع الديمقراطية بحيث لا تتجاوز هذه المناوشات الفكاهية الى التعمق في البحث والمبالغة في الاستقصاء

٥ — فسألته : (كان لي بعض المؤاخذين على افرنجية أسلوبها وتساهلها في اختيار اللفظ العربي الصحيح . فما رأيكم في هذا ؟)

فأجاب هذا الجواب الموجز : لا أظن أنها وقعت في خطإ لغوي كانت تستطيع اجتنابه

٦ — فسألته : (أشرتم في مقال لكم في إحدى المجلات إلى براعة مي في ادارة الحديث فهل نستطيع ان نسمع منكم المزيد في هذا الموضوع ؟)

فكان جوابه : لا يحضرني مثل لذلك أدلّ على البراعة من ادارتها الحديث في مجلس حضره نحو ثلاثين كاتباً وأديباً ووزيراً للتشاور في الاحتفال بالعيد الخمسيني للمقتطف ، وكان اجتماع هذا المجلس عندها في إبان المنازعات السياسية التي وصلت بكثير من الكتّاب والأدباء الى حد التقاطع والعداء . وكان منهم من حضر هذا المجلس وهم متشيعون الى شتى الأحزاب منتمون الى مختلف الهيئات . فقضينا عندها ساعتين نسينا فيهما ان في البلد أحزاباً او منازعات سياسية بفضل براعتها في التوفيق بين الآراء والأمزجة ، وقدرتها على توجيه الحديث الى أبعد الموضوعات عن الخلاف واللجاجة . وما أحسب ان أحداً غيري قد استطاع هذا الذي استطاعته في تلك الايام ، حتى أذكر أني قلت لها وأنا أودّعها تلك الليلة : لقد كنتِ يا آنسة في هذا المساء تحملين معلف (أرفوس)

٧ — فسأله : (ذكرت مي في مقال لها بالمقتطف عدد مارس سنة ١٩٢٧ عن تهوّر ان همومه الكثيرة واليأس الذي حاق بنفسه قد ساعدت على ضعضعة ايمانه . وقد كانت مي كثيرة طول حياتها بالنسبة كبيرة القلب في أواخر أيامها ، فما أثر ذلك كله في ايمانها ؟ وهل زعزعت الحوادث ايمانها ؟)

فكان جوابه: على نقيض ذلك. كانت مي في أيام مرضها أشد إيماناً بدينها ولمعاً بموضوعات الدين من سائر أيامها . ومن شواهد ذلك أنها بعد عودتها من رحلة اليابان المشئومة قصت عليّ حديثاً جرى بينها وبين جماعة من العاشين كانوا يفخرون بأنهم ورثة الدولة الرومانية القديمة فكان أكبر ما نعتهُ على تلك الدولة امامهم أنها هي التي اضطهدت السيد المسيح . ولا شك أن القدح في دولة كبيرة كالدولة الرومانية القديمة لمثل هذا السبب لا يدل على ضعف في النزعة الدينية ، بل يدل على اشتغال الذهن بها اكبر اشتغال . ولا أذكر مناقشة جرت في مجلسها بين ملحد ومؤمن الا كانت هي في جانب الايمان بتفكيرها وشعورها على السواء

٨ — فسألته : (هل اطلعتم على شيء من كتبها المكتوبة بغير اللسان العربي ؟ وهل تعرفون ترجمة لكتابها «زهرات حلم» Fleurs de Rêve المكتوب بالفرنسية ؟)

فأجاب: لم يترجم كتاب زهرات حلم الى العربية. ولا أذكر اني قرأت لها شيئاً بغير اللسان العربي

٩ — فسألته : (ما الذي تعرفون عن احتراس مي في حياتها الاجتماعية ؟)

فأجاب : يخيل اليّ أن احتراسها المفرط لازمها من بدء شبابها ثم زادتهُ الحوادث رسوخاً وتشعباً حتى كانت في بعض الأوقات لا تطمئن الى احد ولو كان من أقرب المقربين اليها . وكثيراً ما دعيت الى حفلات بيتية عند صديقاتها من كبريات الأسر فكانت في أكثر الأحيان تجيب بالاعتذار ، لأنها كانت تكره الحفلات الراقصة على الخصوص مع اجادتها الرقص ودفاعها عنهُ فيما كتبته من الرسائل عن باحثة البادية . ويخيل اليّ أنها كانت مطبوعة على التمنع ومصابرة الآلام فضلاً عما لقيتهُ أحياناً من شدائد نفسية تملي لها في شعور العزلة والشك والاحتراس. وما أظنها كانت تنطلق في حريتها لو سلمت من تلك الشدائد لأنها فيما أرى قد تطرفت في الانحجاز والتضحية . وربما ورثت شيئاً من هذا عن والدتها التي كانت شديدة التمسك بدينها . وكانت لا تطيق أحياناً أن يذكر أمامها أسماء أعلام الفكر ودعاة الحرية الدينية. وقد كانت تسخط مثلاً على ريمان كلما ذكر نادبلة الثائرين من أمثال «ڤولتير» و«كارل ماركس» و«أمرسن» المحدث

١٠ — فسألته عن مذكراتها ورسائلها

فأجاب بما يلي : كانت لها مذكرات وتعليقات أدبية لم تطبع ، وبعض قصائد ترجمتها من اللغات الاجنبية والقديمة خاصة . ولديها رسائل أدبية لكثير من أعلام الأدب العربي . ولكنها ردت هذه الرسائل الى أصحابها قبل اعتكافها واشتداد المرض عليها

وهذه الرسائل شأن عظيم ، لأنها لو جمعت ونشرت لكانت تحفة أدبية رائعة

حضرة السيدة الفاضلة

مدام ايمي خير

١ — سألتها : (ما كان أثر الفجيعة في مي في نفسك ، وكيف تلقيت نعيها ، وهل كنت على علم بما حدث لها قبل وفاتها بأيام ؟)

فأجابت : كان لمصاب مي أثر بالغ في نفسي ، وحزن عميق في قلبي ، وكان بودي لو قدر لمي أن تموت موتة غير هذه الموتة ، وفي ظروف غير هذه الظروف

لن يرثيها صديقة قاسية ، ولا شك أن مثل مي في مقامها الأدبي ومقامها الاجتماعي ومكانها في التأليف والكتابة ليعتبر موتها على هذه الصورة فجيعة قاسية . وهنا تنهدت السيدة الفاضلة ثم تابعت الحديث قائلة : شعرت بألم المصاب لمي ، وأحسست به احساساً عميقاً وبودي لو استطاع كل انسان في مصر أن يعهد لها في أواخر أيامها حياة أهنأ من حياتها التي كانت تحياها

تسألني كيف تلقيت النبأ ؟ نعم لقد قرأته في الاهرام في الصباح الباكر . وكان نعياً مفاجئاً ، وخبراً مباغتاً . وبلغ من ذهولي له وتأثري به أن تحدثت في المسرة (التلفون) مع خليل بك مطران نعزّ عنده من وفاتها نبأ ، وسألته كيف ماتت « مي » هذه الموتة الفاجعة بعد أن قدرنا لها الراحة والهدوء في بيتها الصغير الهادىء

ولقد كنا جيراناً — نحن أصدقاءها والمتصلين بها — نعلم أنها كانت في بيتها الجديد الصغير لا تمس ناءها أحد . وهي حالة شريفة من حالات النفس طرأت عليها فلم نشأ — لذلك السبب — أن نثقل عليها بالزيارة أو نزعجها بطلب المقابلة . مؤثرين أن نتركها في هذه العزلة التي اختارتها بعدما الى أن يأذن الله في شفائها فتعود مع الأيام الى حياتها الأدبية أن مما ستعود سيرتها الأولى ، واننا سنعود الى لقائها .... ولكن الآمال خابت والرجاء ضاع حيث فوجئنا بوفاتها واختطفت الموت لها من بيننا . وما أثقل بعض شيء أن حرمنا لها قبل وفاتها بأيام ولا يقع في خاطري شيء منه ، لأننا تركناها لعناية الله وحماية الأقدار

٢ — وسألتها : (ما هي النواحي التي كانت تعجبك من مي ؟)

فأجابت : لقد كنت أود ميا والشاعر بن حسنٌ في كل عين من ود . وما من ناحية الا كانت ترضيني اعجابي من مي

أعجبني منها ذكاؤها المتوقد ، وذهنها المتيقظ وكانت كل حاسة من حواسها أو جارحة من جوارحها تنمُّ على ذلك الذكاء . فعيناها اللامعتان وتعبيرها الخلاب ، ونغمة اشارتها وحسن حديثها ، كل اولئك نمَّ على ذكائها كما يمّ ريح المسك على المسك

تستطيع أن تؤثر فيك بكلامها ، وتنقلك الى صفها ولو كنت من الملحنين في الخصومة المعنتين في المجادلة والمعارضة

وكان فيها الى جانب علمها وفنها جوانب كثيرة وحواشٍ رقيقة من اللطف والدعة ، واللين والرقة . فكانت تحترم أمها وأباها ، وتقف أمامها كما يقف الطفل في حضرة والديه فما قصرت لهما في حق ، ولا ضيَّعت لهما واجباً . وكان للأسرة عندها محل كبير من الاعتبار وموضع من التقدير ، فظلت محافظة على المبادىء الأسرية والتقاليد العائلية من غير ان يطوّح بها التفرنج الى الخروج عما رسمته لنفسها من مبدإ ، وما وضعته من خطة

وكانت ميّ متواضعة ، وأعظم ما أعجبني منها هو ظهور تلك الصفة فيها على الرغم من علمها وأدبها ، فما غرها العلم ، ولا زهاها الأدب ، ولا نفخ في أوداجها كونها كانت قبلة الوزراء والعلماء والأدباء . فكانت ميّ هذه — ميّ العالمة المتكلمة ، وميّ الاجتماعية المفكرة — تتحدث مع الجاهل فتنزل الى مستواه ، من غير ان تشعره بجهله . وبالجملة كان لميّ أدب الرحولة النبوية ولطف الأنوثة الوديعة

أنا معجبة بها ، أنا معجبة بها (وكررتها السيدة الفاضلة كثيراً)

٣ — فسألتها : (كيف كانت صداقة مي لبنات جنسها ؟ وهل كان للمرأة مكان في نديها كما كان للرجال ؟)

فأجابت : كانت ميّ لطيفة مع النساء ، كما كانت مع الرجال ، فهي لطيفة على اختلاف الحالات ، ولم تتوطد بيني وبينها صداقة كما نظن ، ولكنها سلة وثقتها عندي اعجابي غير المحدود بها كانت ميّ محبة لجنسها النسائي ، وأكبر برهان على ذلك كتابتها عن عائشة التيمورية ، وباحثة البادية ، ووردة اليازجي . أنا تحمل كتاباتها عن طابع الحب لجنسها ؟ ألا ترى في ذلك وفاءها لنا ؟ ولعلك تعجب اذا عرفت ان مرات تردد على نديها لم تتجاوز ثلاثاً أو أربعاً . ولكن أصحابها من الرجال كانوا أصحابي ، فكان حديثهم عنها يؤكد لي ما رأيته في مرات لقائي إياها . والذي أعرفه ان نديها كان محط الرجال لأهل العلم والفضل والنبوغ من الرجال ؟ فلم يكن يتردد عليه ويختلف اليه من النساء الا قليل — على ما أعتقد — وذلك لأن ميّ حرم حضرة صاحب السعادة شكري باشا

٤ — فسألتها : ما رأيك في كتابها بالفرنسية ؟ وهل قرأت لها كتاب «زهرات حلم» ؟

فأجابت : كل ما أعلمه لها بالفرنسية كتابها « زهرات حلم » وهو كتاب عاطفي ، وفيه كثير من الطموح والجدة والشباب ، وقد خلا من التكلف بقدر ما امتلأ من الشعور . ويمكنك ان تقول انه كتاب فتاة صغيرة شابة الآمال ، فتية القلب ، شاعرية الروح

وأول ما كتبت مي بالفرنسية ، وتعليل ذلك بسيط ، فقد تعلمت في مدرسة عين طورة بلبنان اللغة الفرنسية قبل العربية . فكان طبيعياً ان تكتب بما تعلمت . فلما أتمت دراستها فهمت أن هذا الطريق الذي اختير لها خطأ ، وأنه من الخير لها وابر بوطنها ان تدرس العربية . فتركت الفرنسية مرة واحدة وبدأت تتعلم لغة العرب — لغة الآباء والاجداد

وفي ذلك الحين قابلت لطفي باشا السيد ، وسمعها تتكلم وتدافع عن الحركة النسائية الشرقية دفاع المؤمن بما يقول ، فتقدم بمساعدته لتدريس اللغة العربية لها . والحق الذي أنا مستوثقة منهُ ان الاستاذ لطفي باشا السيد هو مدرسها في العربية ...

وظلت مي تكتب العربية وتمارس مدارستها ، الى ان مات أبوها اولاً — المرحوم الياس زيادة — صاحب المحروسة ، وماتت أمها ثانياً . فرجعت مي الى اللغة الفرنسية تكتب بها وتقرأ فيها . وأظن تعليل ذلك سهلاً يسيراً ، فانها لما مات ابواها تذكرت أيام نشأتها وعهد طفولتها ، فربطت الذكريين بما تعلمت من الفرنسية وحنت الى الكتابة بها . وأذكر لها في ذلك الحين مقالاً طريفاً في هذا اللسان تخاطب به عصفوراً صغيراً

وكانت الفرنسية أحب اللغات الاجنبية التي حذقتها الى نفسها ، فكانت تكتب بها بعض رسائلها أكثر من أية لغة أخرى . أما العربية فهي ببعض رسائل تعد ثروة ادبية كبيرة

وعجيب ان تتحول مي هذا التحول العربي من الفرنسة الى العربية ، حتى لكأن العناية الالهية اختارتها لاتقان العربية بعد ان قطعت في الفرنسية شوطاً بعيداً ، واجتازت مدًى كبيراً . وليس ذلك في الحق بعجيب على مثل مي في حسن الذوق والشرقيات والعروبة

ويخيل اليّ انها كانت في ثوبها الفرنسي منسية قلقة ، ركانَ وازعاً نفسياً كان يحاسبها على خلع رداء العروبة . فلما لبت الداعي حين دعا وخلعت ذلك الثوب الفرنسي الذي لم يوائم مزاجها وقم يزل ضيقاً ولبست ثوب العربية فزدان بها وازدانت به

ولقد بلغ من حب مي للشرقيات ، وحفاظها على عروبتها انها كانت تقدم لضيوفها — وما كان أكثرهم — شراب الورد أو فنجانة القهوة على طريقة شرقية بحتة ، فلم تجار (المستعربين أو حتى العرب في الحاضر ، فقد تقدم بعد الطعام بعض الشراب في سليمه

٥ — وسألتها: (هل كانت مي تعالج نظم الشعر بالفرنسية واذا كان ذلك فهل تذكرين لها بعض القصائد؟ وهل عرفت لها رأياً في الشعر العربي قديمه وحديثه؟)

فأجابت. نعم، وعندها مخطوطات لقصائد فرنسية. وكانت تنوي طبعها قبل وفاتها. وأنا واثقة ان هذا الديوان الذي لم يطبع يفوق ديوانها الأول «زهرات حلم» قوة وشاعرية لأنه نتيجة نضجها، وثمار تجاربها واختباراتها بينما الأول كان أول عمل لها في شبابها حيث الفكر محدود والتجارب قاصرة. ولا أعرف لها رأياً خاصاً في الشعر العربي ولم يقع لي من حديث معها أوحديث عنها شيء من رأيها في هذا الموضوع، ويخيَّل اليَّ انها كانت تحب شعر شوقي بك. وأذكر انها خاطبتني مرة بأننا كنا نسعى في طريق واحدة وإلى غاية متحدة، وهي ان نجعل — من العربية — لغة قواماً بين لغة العلماء ولغة الشعب. وهي بذلك الاتجاه في التفكير تعتبر في طبقة الزعامة من النهضة الحديثة

وتحضرني الآن ذكرى طيبة عن ديوانها «زهرات حلم» فقد اشتريته لأساهم في مساعدة جماعة خيرية. فلم تكن مي تبغي من ورائه مكسباً ماديًّا. أو تريد ربحاً ماليًّا. ولكنها ملحقة الاحسان تمثلت فيها فصرفتها عن شغل المادة وعبادة المال. وهنا تنهدت السيدة الفاضلة ثم قالت (لقد كانت حياة مي قصة كاملة، قصة مملوءة بالمآسي والمفاجع، كما كان موتها مفجعاً)

٦ — فسألتها: (كانت مي باعترافها في بعض كتبها كئيبة حزينة. فما أثر تلك الكآبة في نظرتها الى الحياة؟ وهل كانت طيبة الأمل في الجنس البشري أم غالبة الأمل فيه؟ وهل وجدت في غير الكتابة والتأليف عزاء لها عن أحزانها؟؟)

فأجابت. لو سبب حزن «مي» هو عزلتها في الحياة ووحدتها وانفرادها. لقد كانت مي كقمة الجبل الأشم وهي صاربة بعيداً بعيداً في عنان السماء. لقد كانت شاعرة بسموها وذكائها، شاعرة بتفردها في عالمها. عاشت منعزلة في عالم خلقتهُ من ذكائها وصنعتهُ من مواهبها

ألا ترى الى قمة الجبل الشاهق كيف استمتعت بسموها في آفاق السماء فرضيت بوحدتها؟ لقد كانت مي كذلك. ولكنها مع ذلك لم تحتقر الآخرين بل كانت ترتاح الى احاديثهم، وتطمئن نفسها الى حضورهم وتجد لذة في مجالستهم

ولا تنس الناحية العاطفية الجنسية في شقاء مي، فلقد كانت فتاة تأمل أمل الفتيات، وتحلم أحلام البنات. ولكن الأقدار باعدت بينها وبين الزوج الذي يسعدها، والبيت الذي يؤنسها — وأعني بيت الزوجية — والاطفال الذين يجعلون للحياة قيمة من حولها

لم حرمتها الأقدار من ذلك كله. وهو شاق على كل امرأة، عسير على كل فتاة

سألتها مرة عن صحة أبيها وأمها فقالت في لهجة فهمتُ منها كل شيء وأدركت كل معنى « ليس لها غيري وليس لي غيرها.... » آه .. كلمات قصيرة تحمل معاني كبيرة. كانت حياة مي لوالديها ، وكانت نسمات الحياة في مي لوالديها ، وكان محمد مي لوالديها ... وكان تعبيرها لي في هذه الجملة القليلة الدقيقة الالتفاف نوعاً من الشكوى عالمها . وهي شكوى لم تخل على حسب ما يصنع الشاكون والشاكيات. من التأكد أنها لم تكن سعيدة في حياتها، ولم تكن هانئة حتى على المجد الذي أحرزته ، والعرش الذي احتلته . ان في الحياة معاني عميقة وكلما تعمد الانسان عن فهم هذه المعاني وادراكها على وجهها الصحيح زادت مناعته وتضعضت آلامه ومصائبه

لقد ضحت مي بكثير في حياتها وما أعظم ما ضحت به . ضحت بشبابها الناضج الوضيء وذكائها المتوقد الملتهب . وقدمتها الى الحياة قرباناً عالياً ... ونحن نذكر الأسطورة الرومانية القديمة عن الربة فستا Vesta والبنات اللاتي كرس منهن ضحية الشباب واسمهن في الأسطورة (Vestals) فستال . لقد كنّ ضحية الشباب السعيد . فلم يتزوجن ولم يتعلق قلب واحدة منهن بهوى، وقضين حياتهن منشغلات باشعال نار مقدسة معاوية وامدادها بالحطب الجزل حتى لا تنطفىء فان في انطفائها خراباً عاجلاً لمدينة روما ... وكذلك كانت مي — لقد كانت كواحدة من هؤلاء الفستال .... كانت تجد في الأدب تسلية وعزاء . ولم تجد فيه تعزية ، وفرق كبير بين التسلية والتعزية . أي شيء كان يعزي مياً عن آلامها المشتعلة ؟ وأي وسيلة كانت تجد فيها مي العزاء عن آلام الزمان والمكان ؟ (وهنا تمثلت لي السيدة الفاضلة ألا يحكم علي في الحياة بما يدعو الى السلوان والعزاء — فلها مثل ما تمنت لها

لقد كانت الكتابة تشغل مياً عن آلامها وأحزانها ، فكيف مي لو رأيت جنازتها لرأيت البساطة ممثلة فيها، كان هناك أحمد لطفي السيد باشا — وكنت معه — وأنطون بك الجميل وخليل مطران بك وبعض أصدقائها . لقد كنت راكبة مع نظمي السيد باشا في سيارته خلف نعشها . ولما وصلنا الى الدير البعيد الساحقة . دير الأبدية التي لا لقاء بعدها تأخذنا — تلك الدير التي تعرق ما كل برم حبيباً . وتخطف عزيزاً — لما وصلنا الى هنالك حملوها من تبرها ولحدها الأخير ، فوقف عليه لطفي السيد باشا وفريد السيدين ، فأخذت حفنة تلقوها من بين أيديها ليسلموها الى سكون الموت ووحشة القبر ، ويردوا جسدها التراب

وهناك ... في دير القناء ، ومقابر السكوت سكتت مي الخطيبة ، وعاشت مي الخالدة فما سمعنا لها صوتاً ولا سمعنا أحداً يتكلم على قبرها ، ولا ارتفع صوت في الكنيسة لتأبينها .

لقد كان السكون مخيماً ، والصمت شاملاً لما استطاع لسان أن يخل صمته وزاد في أسى الجنازة وحزنها منظر الشمس الغائبة في ذلك البرج لقد كان كل شيء حزيناً ، وكل جو

يُشعر بالأسى والحزن . لقد كانت مرتبتها قاسية ، وكنا نأمل لها خاتمة غير ذلك

٧ — فسألتها : (ماذا قرأت لي في العربية ، وما أحب كتبها الى نفسك ؟)

فأجابت : يؤسفني أني لم أقرأ لها في العربية كتاباً ، وأرجو ان يتاح لي ذلك ؛ أما في الفرنسية فقد كانت تعجبني بكل ما تكتبه ، وأنا أشبهها بعدام دي ستايل في اثنتين ذكائها المفرط ، ويقظتها الحادة

٨ — فسألتها : (ما هي ميول مي واتجاهاتها نحو الشرق والفكرة الشرقية)

فأجابت : مي هي أول امرأة شرقية رزقها الله علماً واسعاً واحاطة تامة بالعلم الغربي والتربية الغربية ، فقد مكن لها تمكنها من بعض لغات أجنبية ومكنت لها أسفارها وثقافتها الخاصة من هذا العلم الواسع ، ولكنها تركت السير في هذا الطريق بمحض ارادتها وخالص اختيارها . وكان تركها قويًّا شديداً . وآثرت مي اختيار طريق الشرق واعتزت بذلك اعتزازاً كثيراً . ما كانت مي شرقية فقط بل كانت متحمسة للشرق متعصبة له . ولكن هذا الحب الشديد لشرقها وشرقيتها ما كان ليعمي عينها عن عيوب الشرق . فكانت تعرف مواطن ضعفه ، ومواضع وهنه ، وتأمل ان يقوى ويشتد . وتستطيع ان تقول ان أحلام مي وآمالها كانت كلها للنهضة الشرقية . وهذا الذي أقوله لك وأنقله عن مي لم أقرأه في كتاب من كتبها ، ولكني عرفته من خلال ملاحظتي لحياتها ومتابعتي لأسلوب معيشتها

وكانت مي تمجد في مفاخر الشرق القديم وفيما سلف من آثاره مجالاً واسعاً للتعبير عن جلاله ... وكانت سعادتها في ان تبقى دائماً « امرأة شرقية » . وكانت حريصة على هذه النسبة الى الشرق معتزة بها دائماً . وما رأيت في حياتي انساناً — ذكراً كان او أنثى — أحب الشرق كما أحبته مي ، ولا تعلق بأسباب هواه كما تعلقت ...

وكان واحداً من همومها وآمالها ان تترجم الكنوز الغربية الى لغتنا العربية لانها كانت ترجو من وراء هذا النقل في الافكار ، والاتصال في الآراء ، سعادة للشرق في آماله ، وتقدماً له في نهضته . وكان ينشبها الكبرياء لشعورها القومي ، ولكنها تود ان يتقرب الشرق من الغرب ليفيد من ثقافته ويكتسب من حضارته . وكانت معجبة بأن تقول عن « أنا شرقية » بكل ما تحتمله هذه العبارة من معان سامية واسعة . وكان مما يزيد هذه الناحية ظهوراً في مي أنها كانت محاطة ببعض الذين يميلون الى المظاهر الغربية . فكانت تمقت تلك المظاهر الكاذبة وتزري بالذين يخرون ورائها او يتشبثون بها . وكأنها في كل لحظة من لحظات حياتها وفي كل لون من ألوان عيشها ، وفي كل بقعة من الارض زارتها ، وفي الشرق اذا حلت ، وفي الغرب اذا اغتربت ، كأنها كانت تقول : أنا من الشرق والى الشرق أعود

حضرة صاحب العزة

انطون بك الجميل

رئيس تحرير الاهرام وعضو مجلس الشيوخ

مَنْ في مصر يجهل مكانة انطون بك الجميل الادبية ؟ ومن في البلاد العربية لم يصل الى أذنيه صوت أنطون الجميل حين يعلو منبراً ، أو يصعد خطيباً ، أو يكتب مقالاً ؟

ويعجب جداً أن يتناول انطون الجميل الادب فيكون فارس حلبته ، وينخل معترك الصحافة فيكون ابن بجدتها ، وينزل في ميدان الاقتصاد فيكون خبيراً في الارباح والأعشار حريصاً على الدرهم والدينار ، ويلج باب السياسة فاذا هو البارع المحنك ، والطبيب المجرّب . والذكي الالمعي . له ضلعٌ في كل مسألة ، ومشاركة في حل كل معضلة ، فهو طلاع الثنايا ، وأخو النجدات ، وصاحب الغمرات . تراه في « الاهرام » في الصباح والمساء ، وفي الغدو والآصال ، دائباً لا يمل ، متحركاً لا يسكن ، نشيطاً لا يفتر . يكتب كلمة او يقرأ مقالاً ، او يستعرض كتاباً ، او يصغي الى متحدث ، او يتحدث الى مصغٍ ، او ينهض في رجاء ، او يدعى الى حفل ، او يلقي على « محرر » أمراً ، او يأخذ منه خبراً . وهو في ذلك كله لا يفارقه لطفه ، ولا تزايله بشاشته ، ولا ينبو عنه حلمه

ووقة أنطون الجميل في أحاديثه هي رقته في كتاباته ومقالاته ، فهو متخير في الحديث . اللفظة المصقولة ، والكلمة المقبولة ، كما يتخير في الكلام حين يكتب وحين يخطب . وقد يجتمع في مكتبه — في ساعة واحدة — طوائف شتى مناحي الفكر ، مختلفو نواحي الثقافة ما بين أديب شاعر ، وكاتب ناثر ، وصحافي بارع ، وناشئ حدث ، وشيخ جليل ، ووجيه في قومه او مقدم في عشيرته ، وعالم كبير ، وموظف خطير فتراه يستمع اليهم حيناً ، ويصغي اليهم حيناً آخر ، ويتلطف مع كل جالس ، ويهش لكل قادم . وهو في خلال ذلك يلقي الأسئلة الى « محرر » ويتلقى الخبر من « مخبر » ويتحدث الى [illegible] ، وأخرى مع « صاحب الدولة » . . ثم يعود الى وصل ما انقطع من الحديث مع زائريه . فاذا هو عالمٌ بدقيقه وجليله ، محيطٌ بجملته وتفصيله

كثر ما زرته وهو في شغل ، او طرقت عليه باب مكتبه وهو في عمل ، وقد ألفت سابق لطفه ، ومأنوس بشره أنني أشق عليه بالطرق ، او أكثر عليه بالدخول ، فاذا هو الرقيق اللطيف ، الباسم المقبل ، فاستدر له بيت قديم لا أملك في مدحه به ومرماحه له وهو

فلا تعتمر بالشغل عنا فانما تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

أخذت منهُ موعداً للحديث عن مي الى المقتطف ، وتمنيت على الله ان أظفر به وحيداً ، وأبتأنس به منفرداً ، وتمنيت على الله أكثر من ذلك ألاَّ يعرض خلال الحديث ما يشغله ، او لا يتحدث من الأمور ما يصرفه . فاذا الأماني هباء ... واذا التي سدى ... واذا انا بالشاعر الكبير والاستاذ الجليل علي بك الجارم يجلس معه . فسلمت وسلم الجارم تسليم البشاشة . وبدأت السؤال «والجمل» يجيب ، والجارم «يعلق» . وانا بين الأديبين الكاسب المستفيد والرابح الغانم . وتمَّ الحديث . وأعلن « الجارم » انتهاء الامتحان ! وقد سماه — في نكتته البارعة — امتحاناً . وما هو الاَّ حديث عن « مي » وكانت رحمها الله حديثاً حسناً لمن وعى ... ويخرج « الجارم » من جيبه قصيدة طويلة في رثاء المرحوم الشيخ الجليل الاستاذ عبد الوهاب النجار ، ويشرفني بأن ألقيها فاذا فيها هذا البيت في وصف الدنيا : —

اذا أعطت فقد أعطت قليلاً ! ولا يبقى القليل ولا الأقل

والجارم بك هنا يقصد عدم بقاء المادة الجامدة والاجسام الفانية الزائلة ، أما حديث الفضل والحسنات ، والروح والمعنويات فهو باقٍ لا يزول ، خالد لا يزول كما قال الشاعر : —

تدول أحاديث الرجال وتنقضي ويبقى حديث الفضل والحسنات

وكذلك يبقى حديث « مي » الفاضلة المحسنة ...

***

١ — سألته : (ما هي أولى ذكرياتكم عن المرحومة مي وكيف نشأت الصلة الادبية بينكم وبينها)

فأجاب : عرفتها وكلانا ناشىء في الأدب ، ولم يَعْدُ ذلك معرفة الاسم ، وقراءة بعض الفصول مما كتبته مي ووقعت لي قراءته . ثم أهدت اليَّ — وكنت يومئذٍ أصدر مجلة الزهور — أول كتاب أخرجته أو أول ديوان من الشعر نظمته ولا يكن ذلك الكتاب عربيًّا . ولكنه كان أعجميًّا ، فرنسيًّا» غير ذي عوج

وأسمته زهرات حلم Fleurs de Rêve . وهو اسم كما ترى فيه عبقة الزهر وقد رصَّعه الندى بالدر ، وفيه سعادة الأحلام وقد صحَّت

ولم ترقع مي ديوانها هذا بصريح اسمها ، ومشهور لقبها ولكنها وقعته باسم مستعار هو (أيزيس كوبيا) . ولاحظت — رحمها الله — في اختيار ذلك الاسم مطابقته في المعنى لاسمها العربي . فايزيس الاهة مصرية قديمة كانت أمًّا لهورس ، وهي تقابل «مارى أو مريم» أم المسيح عليه السلام ، وكوبيا كلمة لاتينية معناها الزيادة والكثرة ، وهي تقابل اسم أسرتها

«زيادة» . ومن هذا الأصل اللاتيني جاءت الصفة Copieux بالفرنسية و Copious بالانجليزية

وأتبعت مي هديتها الأولى الى (الزهور) بمقال عن الفريد دي موسيه ، فنشرته المقتطف في المجلة ، وكتبت كلمة عن ديوان شعرها جاء فيها : —

«عرف قراء العربية الكاتبة الأديبة « مي » مما نشرته من الروايات الجميلة والمقالات الشائقة والابحاث النفسانية الدقيقة في جريدة « المحروسة » . وقد أتحفتنا بمقالة لطيفة عن « الفرد ده موسيه » نشرناها في غير هذا المكان من هذا الجزء

«واما الآن كتاب شعر فرنسي رقيق ، في ذيله بعض صفحات نثرية جميلة تأليف « ايزيس كوبيا » و« ايزيس ومي » هما شخص واحد ، والقلم الذي حبّر المقالات والروايات الرشيقة والريشة التي حاكت برد هذه القصائد الفرنسية ، تحملهما يد واحدة ، ويملي عليهما فكر واحد . والكتاب مجموعة ازهار عطرية نبتت في رياض الاحلام الجميلة ، وهي مهداة الى روح « لامرتين » شاعر القلوب الحزينة ، وهذه الروح المتألمة ترف على كل صفحة من صفحاته وتجعل الكاتبة تقول في قصيدة «هل هي شاعرة ؟» ما معناه : البكاء والرأفة والحب والألم هذه هي صفات الشاعر

وقد ظهر من الموضوعات التي طرقتها الكاتبة انها لا تصف الا ما ترى . ولا تعبر الا عما تشعر به . فجاءت منظوماتها صورة حقيقية لما يشغل فكرها ويحرك قلبها ، ولذلك انت تشاركها عند تلاوة اشعارها في هذه العواطف أيّا كان رأيك في القالب الذي سبكتها فيه . فلا تملك من ان تصبو معها الى مصر ونيلها وآثارها وسهولها ، ونحن معها الى لبنان وجباله وأوديته . واذا كانت « ايزيس كوبيا » شاعرة في نظمها فقد وجدناها أشعر منها في تلك الصفحات النثرية التي حتمت بها «أزهار احلامها» حيث لم تعد مقيدة بقيود القافية والوزن ، وكثيراً ما تكون الأزهار المنثورة أجمل من الازهار المنضورة »

وكان مقالها الأول في «الزهور» باكورة توالى بعدها الثمر الجني ، ووسمتها من بعد جاء بعده الغيث المنهمر ، فتابعت نشر الفصول التي أذكر منها ، ذكرى بعلبك ، والمنى ، ودمعة الروح ، وكيف نقيس الزمان الخ ما نشر هنالك . تلك أولى ذكرياتي عن مي ، وذلك مبدأ الصلة الأدبية بيننا

وكان في منتصف عام ١٩٢٥ أن اشرف (مي) داعية الى الاحتفال بعيد المقتطف الذهبي بعد أن أثارت هي نفسها الناقشة في جعل هذا التكريم للمقتطف مظاهرة أدبية كبيرة في الشرق باشتراك الأمم الشرقية فيه ، وقد لبى نداءها ، وأجاب داعيها نفر من أهل العلم والفضل أذكر منهم الدكتور محمد حسين هيكل بك (باشا) وصاحب الفضيلة السيد مصطفى عبد الرازق (باشا) وتوفيق دياب باشا وأحمد بطي السيد (باشا) ، والمرحوم احمد بك شوقي امير الشعراء والمرحوم السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار ، والاساتذة عباس محمود العقاد وابراهيم المازني وسلامة موسى

وادجار جلاد . واجتمعنا الاجتماع التمهيدي الأول في منزل مي ، وألقت علينا خطبة في وجوب التكر ، ووجوب اشتراك الامم الشرقية والاخوان المصدير في الهجر فيه

وكانت لها في اول اجتماع الكلمة الاول ، وأذكر من كلامها قولها (يتهمون المرأة بأنها تحب ان تكون لها الكلمة الأخيرة دواماً ، فدفاعاً عن بنات جنسي قلت أنا الكلمة الاول ، لئلا تكون الثلثة الاولى ، ولتكن الكلمة الحكمة الحصينة النهائية لحضراتكم ايها السادة الرجال)

ووافق مسادة احمد لطفي السيد باشا (بك يومئذٍ) على كلمة مي ، وتألفت اللجنة من صفوة الرجال وخيرة العلماء والادباء . وشرفتني بأن عهدت اليَّ في تنظيم الحفل وتنسيق العمل مع الآنسة مي ، ففعلنا بهذا العمل معاً ، وقدر الله النجاح كما يليق بالمقتطف ، وتم الاحتفال على صورة كرمنا فيها الاخلاص في العلم ، والثبات والتضامن في الجهاد الادبي . ولا شك في ان نصيب مي في تكريم المقتطف مما لا ينسى وأن طال به الزمن . ومنذ ذلك الحين توثقت العلائق بيني وبين مي ، واستحكمت الصلة الادبية بيننا ، فقد عرفت فيها — في خلال تنظيم الحفل — نشاطاً نادراً ، وجهداً عجيباً . وما رأيتها — مع ما اقتضاه ذلك التنظيم من عمل وسهر — اشتكت نصباً او ملت تعباً ، او وهنت لها قوة ، أو سكنت لها حركة

٢ — فسألته : (هل كانت مي تعتني بالادباء في ناديها احتفاءها بالوزراء ورجال السلك السياسي ، أم كان لهم عندها مقام ثانوي الشأن ؟)

فأجاب : كان نادي مي مثال الاندية الأدبية الراقية ، فكان الصدر فيه للأدباء ، والمحل الأول للعلماء ، أما رجال السلك السياسي واصحاب المناصب الكبيرة فكانوا يغشون نديها ويطرقونه على الغالب بصفة كونهم يسايرون الحركة الفكرية والأدبية ، ويهتمون بما جد فيها من جديد ، وظهر فيها من تطور . وكانت مي في المحفل الحافل من رواده ، وفي هذا المزيج المختلف من روّاد مجلسها بارعة في توزيع الكلام ، لبقة في توجيه الحديث وفسح المجال أمام كل زائر ليقول كلمته او يدلي برأيه أو يذهب في الجدال مذهبه فلا يشعر أحد في هذه الاجتماعات انه غريب عن المحفل أو دخيل فيه . ولعل الخير المذكور الأبيات التي قالها المرحوم اسماعيل باشا صبري

دوحي على دوح بعض الحي هائمة كطائر الطير ترنو الى الماء
ان لم أمتع عيني ناضريَّ غداً أنكرت صبحت يا يوم اللقاء

٣ — فسألته : (هل سعدت الاحداث السياسية يوماً الآنسة مي عن الادب ومتعته الادبية كما شغلها عن السياسة ؟)

فأجاب :— لم تشغل السياسة ميًّا قط عن الأدب ، وكانت تتحاشى الخوض في غمارها أو الدخول في معتركها . ومع ذلك كانت تقرأ معظم الصحف السياسية ، وتتتبع أخبار السياسة وتساير تطوراتها فاذا جرَّ الحديث في ناديها الى السياسة وانساق الزائرون في تيارها ، وانتقل الكلام من دولة الآداب الى دولة الاحزاب ، رأيت ميًّا وقد تحولت الى الاصغاء ، واتجهت الى الإنصات وأعرضت عن الكلام جانباً . فاذا ما تناولت الاحداث انسانية في كتاباتها تناولتها من حيث أثرها في الحركة الفكرية والنهضة القومية لأنها كانت كثيرة الاعتزاز بشرقيتها

٤ — فسألته : (ما هي أجمل الصفات التي أعجبتكم من مي كفتاة مثقفة لنعرضها على فتياتنا المثقفات)

فأجاب : جمَّل الله ميًّا بصفات كثيرة ووهبها الطبيعة بسخاء ، ولعلَّ ما يجمل بفتياتنا المثقفات ان يأخذنَ عن مي شغلها بالدرس والتحصيل عن غير اعمال واجباتها الأخرى ، والعمل الدائم على استكمال ثقافتها من جميع مناحي النشاط الفكري ، والتمسك بعاداتنا وتقاليدنا وأخلاقنا الشرقية على كثرة ما كانت عليه من مسايرة الحضارة الغربية والاطلاع على مظاهرها

ولعلَّ هذا الحفاظ من مي على تقاليد الشرق وتمسكها بعاداته يبدو متناقضاً مع ثقافتها الأجنبية الواسعة ، ولكن ليس بين الاثنين تناقض ، فقد ظلت فكرة الشرق عن تفكيرها فأزرتها بعادات أهلها وتقاليد قومها . فهي لم تدرس ثقافة الغرب لتنسى قومها ، ولم تطلع على حضارة الغرب لتتخلى عن مقومات قوميتها وخصائص شرقيتها

٥ — فسألته : (للآنسة مي مقال عنوانه « كن سعيداً » ترى فيه السعادة في الشباب والهرم ، وتراها في الغنى والفقر وفي الصحة والمرض . فهل كانت مي سعيدة على العلات واختلاف الحالات ؟)

فأجاب : هذا سؤال تصعب الاجابة عنه لأن ميًّا لم تكن تتكشف استار عن مطويات نفسها ومكنونات قلبها بسهولة . وهل عرفت أنت يا صديقي انساناً كان سعيداً على العلات واختلاف الحالات ؟ وهل يقل الانسان انساناً اذا لم يتألم ويشقى ؟ هيهات ! قد تكون في الشقاء لذة كما تكون في السعادة . وما قيمة الحياة اذا جرت على نظام واحد ، ونسق رتيب ؟ وأين إذن حلاوات الجدة بعد الحرمان ؟ ولذات الهدوء بعد ثوران ؟ وقد يكون الانسان سعيداً في هرمه كما يكون في شبابه . ألم يقل المتنبي :—

خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكي

٦ — فسألته : هل كانت ثقافة مي آتية من اطلاعها على الأدب الحديث ومتابعتها

للحركة الادبية المعاصرة ؟ أم استكملت عناصر ثقافتها بدرسة الادب العربي القديم ؟)

فأجاب : الثقافة عند أمثال مي الذين يقرأون ويطالعون كثيراً متعددة المصادر . على انهُ يمكن القول اجمالاً إنها كانت أكثر شغفاً بالاطلاع على الأدب الحديث ومسايرة الحركة الفكرية والأدبية المعاصرة عند مختلف الأمم الشرقية والغربية

ولا يعني ذلك أنها اهملت القديم ، فقد طالعت كثيراً في أدب الاغريق والرومان — أدب أثينا وروما . وكانت متقيدة الأدب العربي الحديث وخاصة أدب المهجر

٧ — فسألته : (هل كانت مي ممن يغرهنَّ الثناء ويعجبهنَّ الاطراء ؟ وهل كانت تزهى بما تكتب أو تعجب بما تنشيء ؟)

فأجاب : — دعني أطرح عليك سؤالاً بدوري : —

هل تعرف أنت يا صديقي أحداً لا يستطيب الثناء ، ولا يستلذ الاطراء ، ولا سيما الأديب اذا رأى انهُ يضرب على وتر قلبه فتهتز له أوتار القلوب ، ويترجم عن عواطفه فتتحرك له عواطف الآخرين

ان في ذلك اكبر تعزية للكاتب ، وأعظم اجر يتقاضاه عن عنائه الدائم وجهده المتواصل وليله الساهر وصباحه الباكر . واذا كان يتألم فألمه لانه لم يوفق الى ابراز فكره وشعوره كما يريد . غير ان هذا الرضى وهذه الغبطة يجب ألاَّ يبلغا مبلغ الغرور ، ويصلا الى حد الاختيال . ولم تكن مي من الغواني اللائي قال عنهنَّ شوقي بك (والغواني يغرهنَّ الثناء)

٨ — فسألته : (ما رأيكم في رسائل مي)

فأجاب : — رسائل مي يجب الاحتفاظ بها لانها نوع جميل من أدب الرسائل في الأدب العربي ففي الأدب الفرنسي رسائل لامثال فلوبير وفولتير وغيرهما ، وفي هذه الرسائل تستطيع دراسة الكاتب اكثر من دراسته في مؤلفاته . وعندي لمي بضع رسائل أعتزُّ بها لانها أثر باق من آثارها . ولقد رأيت فيما رأيت من مخلفاتها ظرفاً خاصاً برسائل ولي الدين يكن

ورأيي أن تجمع رسائلها الى من اتصلوا بها ، ورسائل المتصلين بها اليها ، وتنشر في كتاب خاص ، ففيها ولاشك ثروة كبيرة ، وتراث أدبي نفيس

رحم الله ميًّا ، لقد كانت على اطلاع واسع الحدود ، فسيح المعالم ، وكانت شخصيتها تلب مستقلة من خلال أفكارها وكتاباتها . فما قلدت كاتباً ، ولا حاكت مؤلفاً ، ولكنها ترجمت خلجات نفسها ، ووحي ضميرها ، وسر شعورها . وكانت رفيعة في تقدها ، رقيقة في مخالفة رأي غيرها . فما آذت شعوراً ، ولا جرحت احساساً

حضرة صاحب العزة الدكتور

منصور فهمي بك

مدير دار الكتب المصرية

الدكتور منصور بك فهمي مدير لدار الكتب المصرية ، تلك الدار التي اجتمعت فيها كنوز الفكر العربي ، وانتهى اليها مأثور الآداب ، ومتخير الأفكار ما بين مطبوع ومخطوط . وقد كان الدكتور قبل ذلك أستاذاً في الجامعة المصرية وله تلاميذ كثيرون استفادوا بعلمه ، وانتفعوا بأدبه . وله مكان ملحوظ في عالم الفكر العربي ، وهو دون شك — الى جانب ناحيته الفلسفية — من زعماء الادب في العصر الحديث

وقد أشار الدكتور تشارلس آدمز مؤلف كتاب « الاسلام والتجديد في مصر » اشارة طيبة الى الدكتور منصور فهمي في خلال كلامه عن الجيل المعاصر من المحدثين . وأشار الى كتابه « خطرات نفس » بأنه مقالات تكشف عن خلق ورقي ورعاية للدين وتمسك بالمحافظة الجامدة واحترام لحرية الفكر ولحق الفرد في استخدام مواهبه العقلية . عرف الدكتور منصور فهمي كثيراً عن مثل ، وقرأ كتبها ومقالاتها ، وأعجب باثنتين فيها : أسلوبها المصقول وشرقيتها المتحمسة . والحديث الى رجل مثله — في إتقانه بما يعتقد ، ومصارحته بما يرى ، وفي متانة خلقه وتقديره للقيم الاخلاقية العالية — مما يحلو على الأذن ويطيب على القلب

وفي كل اشارة من اشاراته في عرض الحديث ، وفي كل كلمة من كلماته قوة كامنة .. فهو محدّث قوي الايمان بما يقول ، شديد الثقة بما يذهب اليه . يمضي في الحديث أول ما يمضي على فطرة سمحة جميلة وطبيعة سهلة لينة ، لا يُبهم عليه لفظ ، ولا يشكل عليه تعبير ، ولكنه قد يضطر أحياناً الى الوقوف وقفة قصيرة ليبحث عن كلمة مناسبة او لفظة موافقة او للعدول عن تعبير الى تعبير ، وهنا يرتفع صوته ويزداد قوة حتى لتحس ان كل جارحة من جوارحه تتكلم ... وكان حديث الدكتور معي طويلاً لذيذاً ، قطعتهُ فترة طويلة لصلاة الجمعة . فاذا بنا ننتقل من مكتبه في دار الكتب الى مسجد جماعة الشبان المسلمين التي لها من جهاده نصيب . واذا بنا أمام الله في خشوع المؤمن ، واستسلام المسلم ، واذا الدكتور يجلس الى

ما بعد الصلاة في المسجد ليستمع الى كلام يقولها واعظ ديني

ثم تطول الكلمة ويطيل الواعظ وقد يمل بعض السامعين ، وقد ينصرف بعضهم وينتشرون في الأرض يبتغون من فضل الله ... الا منصور فهي باق وأذنه حتى يفرغ الواعظ من عظته ويلتفي من كتبه فيتقدم اليه الدكتور ويهنئه على حسن تريقه . ونعود بعد الصلاة لنستأنف الحديث عن «مي» في ركن مشمس من أركان القاهرة . وهناك في ذلك الركن البعيد يفيض الحديث ، وينتقل من مسألة الى مسألة ، ومن سؤال الى سؤال ، ولكل سؤال عند الدكتور جواب ...

***

سبحان الله ! كلما سمعتها من صديقي الاستاذ احمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة الغراء وكنا ضيوفاً على الدكتور منصور بك في بيته الجميل بالريف في رهط من العلماء والأدباء . ونودي — بعد الغداء على مائدة كريمة سخية — لصلاة العصر ، فاذا الدكتور منصور يتوضأ ، واذا بنا نستعد جميعاً للوقوف في صفوف مستوية خلف أحد الشيوخ الأجلاء

***

وبعد الصلاة يلتفت الي أخي الاستاذ الزيات قائلاً « سبحان الله ! . منصور فهمي التي أثارت رسالته في جامعة السوربون عن المرأة في الاسلام ثائرة الناس عليه ، يقف للصلاة ، ويحرص عليها في حينها فلا يجزىء عنده في الصلاة القضاء عن الأداء »

فأرد عليه قائلاً « ياسيدي ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء »

وفي الساعات الطويلة الممتعة التي قضيتها مع الدكتور منصور فهمي بك للتحدث الى قرائه بالمقتطف عن « مي » ذكرت كلمة الزيات وقد تردد في أذني صداها فقلت : سبحان الله ! منصور فهمي الذي قضى في فرنسا بضع سنوات ، وشاهد الغرب ، وتعلم على أساتذة الغرب ، ودرس فلسفة الغرب ، وقرأ كثيراً من كتب الغرب ، يعود الى الشرق الروحاني السامي روحانياً سامياً ، ونؤمن عقله العالمة ، وقيمه العظيمة . ويرجع الى الشرق رجلاً محافظاً في تجديد ، مجدداً في حفاظ ، فيتحدث عن شرقية « مي » وعن محافظتها . وعن اعتزازها بشرقيتها فكما كان يتحدث عن نفسه ، وعن شرقيته ، وعن حفاظه

***

كان حديث منصور بك فهمي صدى لأخلاقه القوية ، ورجعاً لروحه الشرقية المعتزة بكل ما في الشرق من مثل عالية ، وفضائل سامية ،

١ — سألته : (ما رأيكم في مي الكاتبة ، ومي الصحافية ومي المحاضرة ؟)

فقال : إني أعد الطريقة التي جرت عليها مي في كتابتها مما يصح أن يكون مثلاً للكتابة الراقية . لأن مي كانت تعكس ما تكتبه بشتى الأفكار العالية ، والمعاني الشريفة التي خلصت لها من ثقافة عريضة واسعة ودراسة طويلة جادة ، ولم تكتف مي بالفكرة المتمكنة ، والمعنى الدقيق والرأي المنخول ، بل كانت تعنى فوق ذلك باختيار الألفاظ الملائمة ، والعبارات الموائمة لتتساوق هذه الالفاظ المتآلفة المتجانسة في سلم موسيقية تتردد في اذن السامع أو القارىء رنيناً موقعاً ، ولحناً مؤتلفاً ، فلا يحس نبواً في لفظ ، أو حشرة في تعبير

ولقد كان لهذا الأسلوب المتميز ، المختار ألفاظه ، المنمقة عباراته ، جرس حسن في أذن السامع ، ووقع حسن في نفس القارىء ، وكثيراً ما كانت تونق مي في هذا السبيل

ولقد أحببت بالأدبية محاضرة كما أحببت بها كاتبة ، فقد كانت في ذلك لنضار محلية ، ولا أعدو الحق اذا قلت أنها كانت محاضرة من أرقى طراز وأعلى عيار ، ولعل أسباباً كثيرة اصطلحت على توفرها في ذلك البيان ، فقد كان لها من عذوبة صوتها ، وحسن اداتها مع حلاوة القائها ووسامتها وحسن حياتها معين على ذلك . وكانت تميزها عين تقف للخطابة في حفل أو المحاضرة في جمع ثقة بنفسها ، واقتداراً بشخصيتها ، فما عرفت أما تهيبت منبراً ، أو خشيت موقفاً ، أو غشيتها سحابة من جبن أو جللتها غمامة من خوف ، بل كانت دائماً الواثقة الشجاعة

أما مي الصحافية فلا عن لي بهذا ولم يسنح لي أن أختبرها بهذه الصفة أو مجربة في فن هذه الصناعة ، فانا أعتقد أن الصحافة فن خاص له مقتضيات رأيتها

٢ — فسألته : ما هو تقديركم عن مي الطالبة في الجامعة المصرية القديمة ، هل يصح أن يكون مثلاً لطالبة حديثة بالجامعة المصرية الحديثة ؟

فقال : أود لو كان عندي عن مي الطالبة بالجامعة ما أقصه عليك ، فقد يسرني أن لو أتيح لي أن أكون أستاذها في ذلك الحين وأن تكون تلميذتي ، ولكني كنت بعيداً عن الجامعة في ذلك الوقت (فقد كان من سنة مصر في فرنسا ، فلما عاد بعد اتمام دراسته وانجاز رسالته لم يتصل بالجامعة مباشرة)

٣ — فسألته : ما هي لتقديركم أن مي لم تحقق في رسالتها الأدبية ، واذا كان ذلك فما هي أسباب اخفاقها ؟

فأجاب : أعتقد أن النجاح كتب لمي في رسالتها الأدبية ذلك لأن مي عاشت

في عصر تقدمت فيه النهضة النسائية من حيث فك القيود وكسر الأغلال التي تقيدت بها المرأة في هذا الماضي القريب . ومع أنها هي نفسها اعترفت بأن هذه القيود استجابة لداعي التطور ووفقاً لحاجات العصر التي كانت لا بد أن تحلها من هذه الأغلال وتتكها من هذه القيود ، فإنها بالرغم من ذلك دعت بنات جنسها ألاَّ يتمادين ورءه هذه الحدود وألاَّ يسرفن في الاندفاع والثورة ، فأرادتهن على ألاَّ يبالغن في الكفاح السياسي ، كما أرادتهن على ألاَّ يضعن حق الانوثة ، او يغفلن واجبات الأمومة

فكانت رسالتها في الحق دعوة مخلصة صريحة لأخواتها في الجنس ، وزميلاتها في الأنوثة وكان سبيلها في الدعوة الكتابة ، فهي كفتاة كاتبة قد خصصت شباة قلمها لنشرة دعوة آمنت بها وحرصت عليها ودافعت عنها بإخلاص وصدق . فهي من هذه الناحية قد نجحت وأدَّت رسالتها — كامرأة — في حسن بلاء ، وصدق نضال

ولعل ميًّا نجحت في هذه الدعوة لأن النزعات من النساء هن اشبعن حظًّا غير قليل من المعرفة ، وأدركن ما كنَّ يطمعن فيه من الثقافة والتحرر كنَّ يرين ما رأت ميٌّ ، وينزعن في الاعتدال منزعها وينحين الى ما ذهبت اليه من الحفاظ وعدم التفريط في خصائص المرأة أو التهاون في ميزاتها ويملن الى الاحتفاظ بسر أنوثتها وقدسية أمومتها

فضلاً عن أن « ميًّا » الشرقية بنحيها ومنها ، والتي أدنى الى ان تصور كتابتها الى الشرقيات ، قد يساعدها في قبول ما كانت تؤمن به وتدعو اليه تلك النزعات الشرقية الكامنة والوراثة القديمة التي لا أشك في أنها أصون لمكانة المرأة من النفوس ، وأحفظ لسرتها من حيث السمو والكمال

(وهنا استند تحمس الدكتور لأمرته وبدا ذلك في صوته الذي كان يهدر كالسيل ، ثم تابع كلامه قائلاً) :

عن تريد المرأة كما وصفها شوقي ليس الشاعر الذي تريد في تعاملها المادية بقوله :

(وبيعة خدر لا يرام خباؤها

تريد في المرأة معنى التصون والاحتشام ، والتحفظ لا معنى التبذل ، حتى يصح معنى القصر في قوله تعالى :

(حورٌ مقصوراتٌ في الخيام)

ولعلَّ من أسباب نجاح دعوة ميٍّ استعداد الشرق الروحي ، والاستعداد الفطري في غريزة المرأة — هذا الاستعداد الذي سيبقى ما بقي للشرق شرق ما أراده الله من رقة ، وحباها

من حنوّ، وأودع فيها من ضعف هو القوة بعينها . . . . لقد سلّح الله المرأة بسلاح يشبه التضعف هو فوق ان يكون ضعفاً . ففي قوته من الرقة والدعة واللطف والانوثة والجمال والحزم المقدسة ما يجعل للمرأة مكاناً قدسيّاً، ومحلاً فيه من جلالة التقديس، وطهارة التنزيه ما ينبغي ان يحول بينها وبين الامتهان والابتذال . المرأة أم الأبناء، ومستودع الذراري فلا ينبغي العبث بحرمتها . المرأة في مكان السمو، ومنزلة العلو، جعلها الله موضع ارادته، وسر مشيئته في تنمية الوجود، وحفظ النسل، واستمرار النوع، فهل يليق بعد ذلك ان تحل حرمتها، او تمتهن قداستها ؟

س — سألته : ما هي أجمل النواحي الاخلاقية التي كانت تسجيكم من مي ؟

فقال : لقد كانت نواحي مي كلها جميلة معجبة، فلا أدري أيها أذكر وأيها أدع . كان فيها لطف وكياسة، وكانت مصقولة الطباع، رقيقة الحاشية، حتى لتكاد تفيض رقة . وأخص ما يعجبني منها نزعتان : الاولى انها كانت متحمسة لكل ناحية من نواحي الاحسان، فكانت أحسن الله اليها — على فقرها وقلة مواردها تتحمس للمعروف، وتتسابق الى الاحسان . ومما أذكره لها أنها كانت في كل محفل من محافل الاحسان تشترك بما تستطيع من مال او مقال ولو قد آتاها الله بسطة في المال وسعة في الرزق ووفرة في الغنى لكان لها في عالم الخيرات والاحسان مكان يشار اليه بالبنان

والنزعة الثانية هي نزعتها الروحية الدينية الراقية، فما كنت أعرف عنها استهانة بما في الاديان من سمو وجمال، ولا بما في الروحانيات من سمو وجلال

س — سألته : يتحدثون عن اعتزاز مي بشرقيتها واعتدادها وفخرها بهذه الشرقية على الرغم مما أتيح لها من ثقافة غربية ومعارف أوربية فهل عند عزيزكم من ذلك شيء ؟

فأجاب — كسبت مي من الغرب مرائق البحث وطرائق الاتجاه، أما المثل الشرقية العليا فقد وجدت في نفسها كفايتها وحاجتها وشفاءها في نفسها من تشوّق الى المثل الرفيع، والمثال الكامل . وذلك رأي مثل الغرب الدنيا على ما فيها من خير — تكاد تكون مصورة في نتائج مادية آلية . وسنة سنية على أن هذه المثل الغربية على ما فيها من تغلب المادة وتحكم الآلة

لا ينكر وجود الخير فيها . بل الشرق الشرقية فهي مثل عليا روحية سامية
هي مثل الحب والفناء فيه
هي مثل الفطرة الى الخير والاستسرار فيها
هي مثل الروح تسمو عن سفاسف المادة . وتتعالى عن مواطىء الاجسام
هذه المثل السامية وجدت من قلب مي التفاتة الشرقية استجابة أكثر من استجابتها الى صلصلة الماديات وجرس الآليات

ولذلك هامت مي بالشرق ، ونادت بالروح الشرقية . ونبهت الراقدين أو النائمين في الاوهام الى الاستجابة لهذه الدعوة .

وكانت دعوتها وصيحاتها تتردد في كتاباتها عن الشرق . ولقد اعترفت مي بضعفه المادي وفقره ، وانبهار عن المظاهر الخلابة التي تظهر بها المدنية الغربية في ثوب موشى مزركش . ولكن مع اعترافها بهذا التفوق في الشرق ، وتسليمها بالانبهار السائد في مظاهره البادي في مواجهة فقد وجدت أن وثباته الروحية وتطلعه الى معاني الخير ومعاني الرحمة ومعاني الايثار . أن الروح الى السمو الروحي هو أسمى بكثير من نزوع الغرب الى معاني القوة ومظاهر المادة

ونحن هنا يتساوق مع طبيعة الانوثة الرحيمة ، طبيعة المرأة الرقيقة ، والانسانية البارة الخيرة التي تمثلت في مي بشراً سوياً

وإذا كنا لا ننكر على مي ثقافتها الغربية ، ولا ننكر عليها استفادتها منها من حيث الطريقة والاتجاهات ، فاننا لا ننكر عليها أيضاً حقها — كامرأة وكشرقية — أن تهيم بالشرق الذي قالت فيه :

(أنها الحياة في أوحش مظهر الرسالات الى الانسانية . وأفضلت تفتح الحياة وميول الوحي والنبوات . لانك مهبط — أيها الشرق — لتكون الوطن الاول للعبقريات الاولى وللابطال والنبيين

... ومع أنها الفتاة التي تناضل الاقوياء وتهدد المجددين تقويمهم في تأليه الغلبة : فهل تستسلم من ذلك تتوثب في الظلام : الى متى تنتظر الفجر الذي سيسطع ؟ :

.... أنت يا روح الضياء ، أيها الشرق !

أنت هو يا روح الحياة !)

في كانت تحب الشرق وتتأثر بطرائق الغرب من غير اندفاع في تياراته ومن غير اغفال لبعض جوانبه السيئة . ومن أكبر دليل على أنها لم تكن مقلدة تقليداً أعمى

فقد عرفت كيف تستفيد من الغرب من غير أن تهمل الروح الشرقية

٦ — فسألته : (ما هي أجمل ذكرياتكم عن مي ، وما آخر رؤيتكم لها وعهدكم بها ؟)

فأجابني : لعلّ أبقى آثار مي في نفسي أنها كانت تحدثني عن بعض خطرات حديث القاهم لها الدرك مراميها ومغازيها . وكانت تصارحني بإعجابها بتلك الخطرات ، وكانت هذه المصارحة بالإعجاب تتكرر كلما لقيتها ، مما دلني على ذوقها الفني واتجاهها الفكري . وكنت أرتاح الى ما تبديه من الإعجاب ، لا فخراً بالثناء أو طرباً للاطراء ، ولكن لشيء أسمى من ذلك قيمة وأبعد مرمى ، لأن هذا الإعجاب الذي كنت أرى فيه صدقه وإخلاصه وبعده عن زخرف القول وزور الرياء كان يدل على الأقل على أننا توافقنا في المعاني التي نكتب فيها والمذاهب التي نذهب اليها

لقد كانت مي صادقة في تنائها على أسلوبي وكتابتي ، وكنت أعرف فيها هذا الصدق وأتبينه ، وأحسّه في كل كلمة تقولها لي ، او عبارة تكتبها اليّ ، فقد كتبت اليّ بما يدل على هذا في إحدى رسائلها الخاصة

وآخر ذكرياتي عنها أنها زارتني في دار الكتب بعد عودتها الأخيرة من لبنان وكان في صحبتها أميرة لبنانية فاضلة وأخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وذهبنا في القول مذاهب شتى الى أن جرّ الحديث — وهو ذو شجون — الى شعوري في فقد ولدي (وهنا بدا التأثر على محدّثتنا الفاضلة بارك الله له في البقية الصالحة من أولاده وأقرّ بهم عينه) . وكنت أشعر في عرض الحديث أن ميًّا كانت تشاطرني مخلصة هذا الإحساس العميق . فكأنها كانت أرسلتها الاقدار في هذه الساعة لتخفف الوجد الذي أجد حينما أثيرت ذكرى ولدي

ثم أخذت تنحه في كلامها اتجاهات هي الى الفلسفة أدنى منها الى العاطفة، وهي الى الحيرة في فهم أحكام القضاء والقدر أقرب منها الى التسليم بالواقع المحتوم ، والقضاء المبرم

وكانت مي في الشام في عزلة قاسية، ووحدة مميتة بعد أن اصطلحت عليها الآلام والأحزان وحالفتها الوساوس والأوهام — مما يعرف القراء الأفاضل نبأه في حينه — وكنت أنا أزور الشام في ذلك الحين ، فرغبت في لقائها ، ولكنها كانت في عزلتها لا تلقى أحداً ، ولا تقابل انساناً

وحدثني أمين الريحاني بعض الحديث عنها . وأخبرني انها كانت قريبة منه في أمريكة

وأودُّ هنا وأنا في معرض الحديث عن ذكرى مي ان اقرن ذكراها في عزلتها بلقائي لامين الريحاني الذي ترك في نفسي أثراً طيباً

ولقد مات الريحاني وسار الى النهاية التي يسير اليها كل حي ، وحُمِّل على الآلة الحدباء التي يُحمَّل عليها كل ابن انثى وإن طالت سلامته ... وماتت بعده مي كما تموت الزهرة بعد ما كانت متفتحة بالامل ، فوَّاحة بالشذى ، مخضلة بالطلّ الندي

ولو عاش الريحاني بعد مي ، وقدر له ان تسأى خطراته الى الأبدية بعد خطواتها فلعلهُ كان أولى الناس بالحديث عنها ، وأجدرهم بأن يقص على الادباء سيرة من جهاد مي وكفاحها في سبيل تحقيق مثلها العالية

أنت تسألني عن أجمل ذكرياتي عن مي ولم تسألني عن أحزن ذكرياتي عنها كأنك تناسيت ما تثيره الذكريات الحزينة في نفوسنا من لذاذة التذكر ! لقد كنت في لبنان ضيفاً على امين الريحاني ساعة من الزمان كنت أنا وزوجي وابني فيها في بيته وضيافته ، وحدَّثنا الريحاني عن مشاهداته ورحلاته ، وحدَّثنا عن ذكرياته في بلاد العرب وحدثنا عن مي وعزلتها واستجماعها ، فكانت ساعة امتزجت فيها أجمل المحادثات بأحزن الذكريات ...

٧ — فسألته : (أي نوع من الكتب كانت مي تقرأ ، والى أي حد بلغ شغفها بالمطالعة ؟)

فأجاب . لعل ميًّا نفسها أجابت عن الشق الأول من سؤالك في مقدمة الكتاب الذي ترجمته باسم (ابتسامات ودموع) . فقد اشارت في المقدمة الى النوع من الكتب الذي تحبه وتحفه بالايثار . أما شغفها بالمطالعة فقد كان كثيراً لا حد له ، ولعل هذا هو السر في اتساع آفاق ثقافتها ، وانفساح المدى امامها . وكانت شهرة المطالعة عندها لا تقف عند حد ولا تنتهي الى غاية ، وهذا درست كثيراً من اللغات الاجنبية وتمكنت منها وكانت تلتهم الكتب كما يلتهم اسم لقمة من الزاد ، أو كما يزدرد الحائك كبرة من الخبز ، وكان لها مكتبة خاصة تعتمد عليها وترجع اليها أكثر من رجوعها الى المكتبات العامة

وكانت مي تعتز بمكتبتها الخاصة اعتزازاً كبيراً ، وتعتني بها عناية كثيرة ، وتزوِّدها كل يوم — على حسب موردها — بما يظهر من كتب ، ويجدُّ من تأليف . ولا أعلم مصير هذه المكتبة بعدئذٍ

٨ — فسألته : (عرفتم ندي مي أو صالونها الادبي ، ألا ترون ان يكون مثلاً

للأندية الخاصة بدلاً من تلك التي يكثر فيها الكلام واللغو والتأثيم، ويشيع فيها التبيل والقال ؟)

فأجاب: لاشك ان منتدى مي أو «صالونها» كان حافلاً بنواحٍ ادبية، ومملوءاً بأشتات من العلم وألوان من الثقافة، ولكني كنت أتمنى ان يكون هناك أندية «صالونات» نسائية بحتة، يشيع فيها الأدب والتفكير الراقي على ما ينبغي ان يكون بين المتأدبات المثقفات من الآنسات والسيدات، والبنات والأمهات، كما تكون هناك اندية ادبية بحتة تجمع بين الشيوخ والشيوخ أو بين الشباب والشباب، او بين الشيوخ والشباب ويشيع فيها كذلك الأدب الراقي الرفيع من غير حاجة الى كثرة الاختلاط. اما اذا اقتضى الأمر الاختلاط فليكن بمقتضياته وظروفه ومكملاته بحيث لا يندس في هذا الاختلاط من لا حصانة تعصمه من كل ما يخل بآداب الاختلاط الراقي، ليس بالنسبة الى الآداب الظاهرة فقط، بل في الدقائق الخفية، وفيما يبدو عليه من القول والاشارة والعبارة، وفيما يخطر على خفايا النفس من التصورات الآثمة والمضمرات السيئة

ولقد كان منتدى مي راقياً لأنها كانت راقية بأخلاقها، سامية شريفة في افكارها، وليست كل فتاة او سيدة قديرة على ان تشيع في ندبها الخاص — لو كان لها ندي — ما كانت تشيعه مي في منتداها من أدب ومحافظة. ولني لا أعدو الصواب إذا قلت انه في العصر الحديث وجدت منتديات نسائية سبقت منتدى مي، حتى ان بعض الأميرات المصريات من البيت المالك وهي الأميرة «نازلى» كان يغشى مجلسها أمثال قاسم امين وسعد زغلول والشيخ محمد عبده

ولعل مجلسها كان يشيع فيه الأدب الراقي، وتتناول فيه المسائل الاجتماعية العالية، وتدار فيه الأحاديث الرفيعة في الوان من الأدب، وأنواع من البحث. فليست مي هي البادئة بهذا في العصر الحديث وقد سبقتها الى هذا فيما نعلم أميرة مصرية فضلى. وقد يكون هناك بعض السيدات الفضليات ممن سبقن مي الى انشاء هذه الأندية الأدبية، ولكن مي اشتهرت «بصالونها» لأن بابه كان أوسع، وأكثر من يجلون الى تضييق هذا الباب

ولم ينفرد نساء العصر الحديث بهذا، فقد سبقتهن السيدة الجليلة سكينة بنت الحسين ابن علي، وكانت — كما يروي صاحب وفيات الأعيان — سيدة نساء عصرها ومن أجل النساء وأظرفهن وأحسنهن اخلاقاً. وكانت لها نوادر مع الشعراء ومساجلات مع الأدباء ورد ذكرها في بعض كتب التاريخ والأدب

حضرة الاستاذ

ابراهيم عبد القادر المازني

لم أرَ في حياتي (المازني) قبل اليوم الا مرة واحدة، وكان ذلك من عهد غير قريب، أيام كانت (السياسة الاسبوعية) في أول عهدها

ولكنني رأيت بعد ذلك (المازني) مرات يخطئها الحصر ويفوتها العد في كتبه ومقالاته وقصصه

ولقد عرفني الى (المازني) — ولا أعني التعريف بالاجسام وما يصحبه من التقاء اللحظ، ووقوع العين على العين، ومصافحة الأيدي بالسلام، وانما أعني التعريف بأدب المازني وأسلوب المازني ومكانة المازني بين الادباء — عرفني بذلك استاذي الجليل المرحوم الشيخ احمد الاسكندري، وكان كثيراً ما يستعرض في دروس الادب بدار العلوم المعاصرين من الادباء والشعراء والكتّاب — حتى السياسيين منهم — وكانت له فيهم آراء ونظرات

***

وكان الاسكندري كثير التحدث عن (المازني) وخاصة عن نصاعة أسلوبه العربي مع بعده عن التكلف، ودقة تصويره لدقائق الامور وصغائر الاشياء مما لا يتاح لكثير من الكتّاب. وشهادة استاذ جليل كالمرحوم الشيخ الاسكندري المتمكن من اللغة العربية، الواقف على كثير من أسرارها وخصائصها، وفقهها وأساليبها لها قيمتها وأثرها. ولم يكن الشيخ ممن يعجبون أدنى اعجاب بالمذاهب الافرنجية في الكتابة او ممن ينزعون الى منازع الركاكة باسم التجديد، والله يعلم انهم صنعوا قديمهم فلم يبق لهم جديد

والمازني كان معداً قبل أن يتخذ الكتابة صناعة له، ولعله كان مدرساً موفقاً كما وفقه الله في أدبه. وقد ذكر النقاد في مقال قريب له (بالرسالة) أن المازني (كان مسيطراً على التلاميذ، قلّما يحتاج الى معاقبة أحد منهم لخروجه على نظام الحصة، لانه كان مهيباً بينهم قديراً على أخذهم بمهابته اياه قبل خوفهم من عقابه)

والحق ان المازني على صغر جسمه كبير في قلبه، مهيب في طلعته، وله في الالقاء والحديث طريقة جذّابة، فهو يُسري سامعه بمتابعته وينتقل به من معرض الى معرض في أناة واطالة، فاذا أوجز وَدَّ جليسه أنه لم يوجز . . .

وكان المازني يقول الشعر، وكان كبيراً في مجاله وميدانه، وله فيه مذهب معروف، وله في الشعراء رأي خاص، ولكنه هجر هذه الروضة الجميلة التي تنبعث النضر في أحزانها والتصرف الى الكتابة والى السياسة، وشغله دنيا الناس عن دنيا الشعراء . . .

والعقاد والمازني اخوان متلازمان يستدعي ذكر أحدهما ذكر الآخر، ولعل لاشتراكهما القديم في نقد بعض الشعر الحديث أثراً في ذلك . ومن الغريب أن يذكرهما الدكتور نقولا آدم في كتابه على الولاء متلازمين حين يعرض الكلام على تأثير الشيخ محمد عبده فيهما

كانت فرصة الحديث مع الاستاذ المازني من أسعد الفرص التي ظفرت بها في الحديث عن (مي) الى قراء المقتطف . ولقد تشعب الحديث ألواناً وشؤوناً وأخذ كل مأخذ، وتخلله لحظات طوال أو قصار — كان يستعرض فيها الاستاذ بعض ماضيه، ويقص بعض ذكرياته في صباه وشبابه، (وفي الطريق) وفي مدرسته، وفي الحظ الذي كان دائماً معه على اتساق . .

والمازني يبدو في كتابته، كما يبدو في أحاديثه شديد الحنين الى الماضي، فهو وفي له في أي مظهر كان، نزاع اليه ولكن هيهات أن يعود :

فليست عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينك تدمعا

***

١ — سألته : (كيف عرفتم مي؟ وما هي ذكرياتكم التي تحتفظون بها عن أول لقاء؟)

فأجاب : لا أذكر متى عرفت فقيدتنا العزيزة مي؟ او كيف عرفتها فما يبقى في ذاكرتي من شيء الا صورته . وأكبر ظني أني عرفتها بعد ان أصدرت مع صديقي الاستاذ العقاد كتاب « الديوان » في النقد . على أني لست واثقاً ولعلي عرفتها بعد صدور كتابي « حصاد الهشيم » . وكل ما أذكره — لأنه صورة وذاكرتي « فوتوغرافية » — هو أني تلقيت منها ذات يوم بطاقة مكتوبة بخط جميل تدعوني فيها الى زيارتها في يوم للاثنين . أما أي ثلاثاء وفي أي شهر او سنة فعلمه عند الله . وقد استشرت يومئذ حسن الخط وتوهمت أنها استكتبت أحد الخطاطين وعددت هذا من التكلف الذي لا داعي له . ومنا كنت أمقت التكلف وأنفر من الاجتماعات الكبيرة فقد زهدت في الزيارة التي دعت اليها ووطنت نفسي على التخلف . ومن حسن الحظ أني نسيت ان أبعث اليها برد او اعتذار . وأحسب ان الاستاذ العقاد هو الذي هوّن علي الأمر وشجعني على قبول الدعوة وعرّفني ان هذا خطها لا خط خطّاط فلم أجد مناصاً بعد ذلك من تلبية الدعوة الكريمة

وأقول « الكريمة » لأني كنت سيئة الأدب معها او على الأصح قليل الدقل . ذلك أنها كانت أهدت اليَّ كتابيها (النسمات) و (ظلمات وأشعة) فكتبت نفسي ناظراً غير مستعد لحسن الرأي فيهما ولعلَّ كلمة (الظلمات) هي التي ساء وقعها في نفسي فكتبت بضعة فصول في الاخبار — نشرت بعد ذلك في (حصاد الهشيم) عن (الواجب) و (الكتب والخلود) و (الطبيعة عند القدماء والمحدثين) ولم أتناول الكتابين بأي بحث وانما كتبت ما كتبت لمناسبة اهدائهما اليَّ وكانت هذه قلة ذوق على التحقيق . وكان اهمال ابداء الرأي لا يخلو من معنى الاستخفاف فأي وجهٍ ألقاها وقد صنعت ذلك . . ولكنها غفرت ذنبي وأغضت عن قلة ذوقي وعسى ان تكون قد حملت ذلك مني على محمل الغرور او الطيش او الحماقة التي يركب الشاب بها الحياة ولولا أنها صفحت عني لما دعتني . فمن الاقرار بالذنب والاعتراف بالخطإ وما ينطوي على معنى الاعتذار ان ألبي الدعوة . وحدثتني نفسي وقد دارت فيها هذه المعاني انها لا بدَّ ان تكون مرهفة الاحساس عظيمة مروءة القلب رحيبة الأفق وانها على كل حال لا بدَّ ان تكون ظريفة فتوكلت على الله وذهبت

وأعترف أني دخلت متهيباً مستحياً ووقفت على الباب متردداً — متهيباً لقاءها، مستحياً ان أحشر نفسي بين زوَّارها الذين قبل لي أنهم من كل طبقة، ومتردداً لأني لم أعتد هذه المحافل ولأني أعرف من نفسي شدة النفور من هذه الطبقات التي تعد نفسها ممتازة او طالبة او لا أدري ماذا أيضاً . على أني دخلت بسلام فاستقبلتني هالة باشة (مباركة) فتشجعت ولا أظن أني نطقت بحرف وقعدت حيث أومأت . وكان هناك الاساتذة — ومعذرة اذا لم أذكر الألقاب — نقولا السيد وخليل مطران ومصطفى عبد الرازق والمرحوم السيد رشيد رضا وابن أخيه محيي الدين رضا والاستاذ النقاد وآخرون كثيرون امتلأت بهم حجرات الدار وكانت المرحومة امها تساعدها على الترحيب بالضيوف واكرامهم ولم أذكر انه دار بيني وبينها حديث، وكانت كلما مرت بي تلقي لي كلمة تحية أو تكتفي بالابتسام وأنا كالأخرس لا أعرف بماذا أجيب . واذا بهذا الجمع الحاشد يخرج من الحجرات الى الردهة الفسيحة واذا بها تنتحب وتولول فلما أكرد شيئاً كريم لمخاطبة وقد شيئاً من هذا القبيل (معرفتكم ...) فانطلق لفمي السيد بما يصفق فتعجبت لهذا الرجل وما عهدته يومئذٍ اسرافاً في التلطف والمجاملة ولم اصغ لشيء مما قالت ورأيت كثيرين ينهضون ذاكرين مشيز وصار هذا يدعو ذاك لالقاء كلمة فخفت وزادني رعباً ان السيد محيي الدين رضا همس في أذني انه سيدعوني الى الكلام فقلت والله لئن فعلت لأقولن ما يسوءك فأنا من رعاع العامة ولست أحسن هذا الضرب من الكلام ومناحثنا هنا التي بعضنا على بعض وعلى أني لا أعرف لماذا جئنا أو دعينا . .

واتفق في هذه اللحظة ان مرت بي الآنسة مي فحاولت ان أنهض لها فنبهتني عن ذلك وعرفتني انها غير لازم فرجعت لساني وقلت لها معتذراً عن جهلي اني من عامة ابناء الشعب وليست من روّاد الصالونات فأرجو ان تتجاوزي عن اغلاطي. فقالت بابتسامة وديعة: — لا تقل هذا الكلام. قلت: ألا تحبين ان تعرفيني على حقيقتي. قالت: طبعاً. قلت: فقي اذن اني من ابناء الشعب ولا أستطيع — ولا أحب — ان ابرئني عن هذه المنزلة فتبسمت وهزت رأسها. ولا أدري الى هذه الساعة أكان هذا منها أسفاً أم رفضاً للتصديق وانما الذي أدريه اني كنت جاداً جداً

وبدأ الناس ينصرفون وهمّ الاستاذ المقاد وهمت بالخروج فأخرتنا واستبقتنا — لتعظم الله بل استبقت ايضاً الاستاذ خليل مطران — وجلسنا نحن الاربعة في حجرة الاستقبال الكبرى وكان نصيبي من الاصغاء مطرقاً حيناً وناظراً اليها حيناً آخر ومعجباً بها في الحالين وان كنت قد شعرت اني غير ذاهم شيئاً مما يقال لفرط اشتغالي بما في نفسي

وحاولت نفسي في تلك الليلة ورحت افكر فيما رأيت وسمعت فأعجبني من الآنسة مي ان احتفالها بمثل الادب كان أبين من احتفالها بغيرهم وسرني على الخصوص رقتها وتلطفها حين أخرتنا وانا اقتنا كأنما كان شاغلها كله هو ان تجالسنا نحن لا سوانا. وتذكرت ما كان من رداء وتصفيق لهذا السيد الذي أسخطني فراجعت نفسي في سخطي عليه وراجعت ما كان من رداء فلذا الكلمة التي استهلت بها كلامها منذ مفتتحا ان الاعتراف بالجميل ينطوي على الأمل في دوام هذا الخير ولو انقطع الأمل لكان الأرجح ان لا يكون شكر او اعتراف معروف فهي اي الآنسة مي تشكر الذين لبوا دعوتها شكراً فيه معنى الامل في مواظبتهم على الحضور. وكانت هذه براعة منها ولم يكن تصفيق تطفل السيد الذي في غير محله. ولقد كنت خليقاً أن أصفق مثله لو انه كانت لي مثل فطنته او على الاقل لو كنت ساعتئذ معنيّاً بالاصغاء

ولا أدري هل عدت بعد ذلك الى زيارتها ام لم أعد فان كنت عدت فقد كان ذلك ولا شك بدافع من الاعجاب والاكبار وان كنت كففت فالعلة لا بد ان تكون تصوري لما يسمى «الأدب»

٢ — فقلت: (هل تعرفون شيئاً عن رسائل «مي» والمكاتبات التي دارت بينها وبين الشيخ والادباء؟ وما رأيكم في نشر الرسائل العامة منها التي تتعلق برأي في الادب او فكرة في الحياة. او نقد لمذهب، او تعليق على كتاب؟)

فقال : أعرف ان كثيرين من الأدباء كاتبوا ميًّا وكتبت اليهم والذي يعرف ميًّا لا يرى بأساً من نشر رسائلها اذا أصدقائها فانما أحسنها اشتملت على غير آرائها في الحياة والأدب والكتب وما الى ذلك ويصعب جداً ان أصدق — الاَّ اذا قام الدليل على غير ذلك — ان ميًّا كانت تتناول في رسائلها أموراً شخصية . على اني ممن لا يرون نشر الرسائل الخاصة ولو كانت بحتاً صرفاً، وليست مي بيننا حتى يمكن ان تستأذن في النشر، ولا أرى من حق أحد أن ينحل نفسه هذا الحق

ويحسن ان اقول اني لا أخشى ان يكون في رسائل ميّ او رسائل احد اليها ما ينقص من حسن الرأي او الاعتقاد فيها . والارجح عندي ان نشرها يعزز مقامها ولكني مع هذا لا أوافق على النشر لان هذا جانب من حياتها الخاصة ولا شأن للجمهور بها

٣ — فقلت : راسألتني سيدة أديبة كبيرة عن رأيي أنا في كتب مي ، وهل سيكتب لها كلها او لبعضها الخلود؟ فلم أبد لها رأياً خاصًّا ورأيت انه أحيل السؤال بصوري عليكم ؟

فقال . حولتم عليَّ سؤالاً ألقته عليكم سيدة ادبية كبيرة عن كتب مي وهل سيكتب لها الخلود . والجواب — أي جواب — لا يخلو من اجتراء على الغيب . على اني أقول اني أومن بالفناء في الدنيا ولا أومن بالخلود لشيء فيها ، فلا الأدب ولا غيره يبقى ولا الحياة نفسها ولا الكرة الأرضية كلها، وتصور يا سيدي ان كل جيل من كل أمة في كل عصر يخرج طائفة غير قليلة من الكتاب والادباء والشعراء . وكم عدد من يظهرون في الامم جميعاً في العصر الواحد . . مئات . . وكم عدد من يذكر العالم في حاضره من عشرات الآلاف الذين سبقونا... وسيصبح عشرات الآلاف ملايين على الادهار . . نعم ربما بقيت الكتب محفوظة في دورها فيكون البقاء دعناه الدفن . . لا يا سيدي

وأنا أعتقد ايضاً ان العالم سيستغني عن الألفاظ وانعطاف الصوت البعيد كأداة للتفهم والافهام وسيستطيع بعد مرور أحقاب كافية ان يتخاطب ويتراسل ويتفاهم بموجات يرسلها كما يرسل الآن موجات لاسلكية يذيعها في ارجاء الارض فيسمع القاصي والداني . وحينئذٍ يستغني العالم عن الأدب المكتوب كله

٤ — فسألته : أترون لو ان ميًّا عاشت حياتها كلها في لبنان دون مصر أكانت

تبلغ في ذرى جباله ، وتحت ظلال أرزه ما بلغته في معصر من مرتبة أدبية على شاطئ النيل وتحت ظلال أهرامها ؟)

فأجابني : تسألوني هل لو كانت مي قد عاشت في لبنان دون مصر أكانت تبلغ ما بلغت من مرتبة ممتازة في عالم الادب والجواب نعم ولا ، فاما نعم فلان ادب مي متأثر بتيارين على الخصوص ، الأول التيار الذي أوجده اليازجي وزملاؤه وعلى هذه الطبقة تأدبت مي على الخصوص وبهم تأثرت من الناحية العربية واليهم يرجع الفضل في سلامة اسلوبها وبناته وهذه الطبقة كلها او معظمها من اللبنانيين . وأما الثاني فهو تيارات الادب الاوربي التي درسته بالذات المختلفة التي كانت تتقنها وتقرأ وتكتب بها ، وترون من هذا انه كان يمكن لمي ان تحيا في لبنان او في مصر . ولكن شهرتها — لو كانت قد بقيت في لبنان — كانت خليقة أن تكون أقل وفي نطاق أضيق . ويلاحظ في تاريخ الادب الاوربي الحديث ان كل من اتصل بعصر في حياته كان نصيبه من الشهرة أوفر . لا أدري لماذا . ولكني ادى ان هذا هو الواقع ولو اتسع المقام للافاضة في البيان لفعلت وهو على كل حال باب من القول لا يفي فيه الاجمال فيحسن الاكتفاء بما أسلفت

٥ — فسألته : (ما رأيكم في أسلوب مي وفي طريقتها التي اتخذتها للتعبير عن آرائها وأفكارها ؟)

فأجاب : أما أسلوب مي فسليم نقي ، وقد اشرت الى قلة عقلي لما تلقيت كتابيها ذاك أني أكره الاسلوب العاطفي أو الوجداني وقد نسيت وأنا اقرأ كتابيها أن الكاتبة امرأة وأنها لا تكون مخلصة لنفسها وطبيعتها الا اذا كتبت بروح المرأة وأنها بغير ذلك تفقد من شخصيتها ولا قيمة لها . وقد كانت مي امرأة صادقة الانوثة غير طائشتها ومخلصة لجنسها وطبيعته أعظم اخلاص . وأحسب اني قد بينت كيف كنت قليل العقل

٦ — فسألته : (ما رأيكم في منزلة مي بين كتاب العربية ؟)

فأجاب : — الجواب عن سؤالك هذا سؤال مثله : هو أين في العربية من النساء من يضارعها حتى يكون هناك محل للمفاضلة ؟

حضرة الاستاذ

خليل مطران بك

خليل بك محدّث من الطراز الاول ، ان طال لم يملّه سامعه ، وان أوجز ودّ المحدث اليه لو انهُ لم يوجز . وهو شاعر في نثره ، كما هو الشاعر في شعره . فاللفظ منتخير عذب ، والكلمة منتخبة رشيقة ، والبيان مفصّل والمعنى مقسّم . وفي القائهِ حسن يزيد من حسن بيانه وفصاحة لسانه . فكأن حديثه — على عمومه — ضربٌ من الشعر او لونٌ من السحر

ولقد عرف خليل مطران « مبّا » كما سيجيء في عرض حديثه ، فدامت المعرفة . واستحكمت الصلة ، وامتزق الود أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، في زمان وهنت فيه العلائق وتراخت فيه العهود والوثائق فكان « خليل » الخليل الصافي ، والرفيق الوافي كما هي شيمته مع كل من عرفوه ، وسجيته مع كل من اتصلوا بأسبابه

ولقد وقفت « مي » منذ أكثر من ربع قرن — وكان ذلك بالضبط في سنة ١٩١٣ — في جمع حافل من الادباء والعلماء ، والكبراء والعظماء تكرم « خليل مطران » بمناسبة الانعام عليه بوسام حديوي ، فألقت في ذلك المحفل كلمة بعث بها « جبران خليل جبران » فكان ذلك أول عهدها بالمواقف ، ومفتتح أمرها في المجامع والمحافل . فأحسنت الالقاء ، وكان صوتها كما قال الدكتور وصفي بك عذباً لا يكاد يبلغ الأذن حتى يصل الى القلب

بعد ذلك العهد البعيد وقف مطران يدفع ثمن ما أسدت اليهِ مي من الجميل . قلت له

(أسألكم بوجهِ عام عن مي من حيث شاعريتها ورأيها في الشعر)

فأجاب هذا الجواب المستفيض : لا بأس قبل الحديث عن مي ان أشير الى أول معرفتي بها . فقد جاءني يوماً من الايام الشيخ يوسف الخازن وكان صاحب جريدة الاخبار بمصر ، وناولني ديواناً من الشعر مكتوباً عليهِ اسم المؤلفة (إيزيس كوبيا) . ولم يكن هذا الاسم الا ترجمة او مقابلاً لاسم (ماري زيادة) وطلب مني بعد اتمام قراءته ان أكتب عنهُ كلمة في جريدته ، على نحو ما يصنع بكل كتاب جديد لتقديمه الى القراء

قرأت الديوان فوجدته مكتوباً باللغة الفرنسية بعبارة سليمة تنم على دراسة متقنة دقيقة ومعرفة صحيحة بهذه اللغة

وبالبداهة كل ما بقي الى الآن في ذهني من أثر هذه الكتابة وبعثت به الى جريدة الاخبار في ذلك الوقت ، كان مؤداه أني بعد مطالعة هذا الكتاب تمثل لديّ قفص من الذهب يتحرك في داخله ويتنقل بين أسلاكه اللامعة عصفور صغير ملوّن الريش ، مرح كل المرح كأنهُ يضرب بأجنحته الصغيرة جوانب هذا القفص الذهبي ليفلت من قيود أسلاكه وينطلق منه الى الفضاء الواسع والجو المطلق الفسيح لأنهُ لا يطيق الاحتباس ولا يقدر على ان يكون سجيناً في مكان ضائق بأمانيه في الحياة . وتبين — لما عرفت ميًّا بعد ذلك — ان العصفور الصغير لما بدأ الحياة خارج المدارس وأقبل على مغامرات تكشفت أمامه وسائل النجاح القريب ، ورأى آفاقاً بعيدة للآمال ما كان ليحجم عن التوجه اليها بكل قواه : فأخذت مي تقرأ الادب العربي وتتعلمهُ ، ورأت ان مجالها يكون أفسح حين تكتب بلغة قومها ، وان ميدانها يكون أرحب وأوسع حين تعبر بلسان أهلها ، ورأت كذلك ان تموُّقها المنشود لا يتخذ له ذريعة أقوى من ان يستند الى شعورها الشرقي ، والطبع الأصيل الذي أخذته من منبتها

وكانت فطرتها تعينها على المجهود المطرد القوي . فما لبثت ان تضلعت من اللغة العربية تضلع الذين قضوا وقتاً طويلاً في مدارستها . وهنا انتقلت فيها الشاعرية من الطريقة التي كانت قد بدأت بها في ديوانها الاول — طريقة العروض والروي — الى طريقة البيان الآخذ بين النظم والنثر مما له خصيصة في اللغة العربية . وتلك ان تقول ان شاعريتها في اللغة العربية كتبت بطريق النثر الفني وهذا هو ما اختصت به في اسلوب كتابتها الى ان ماتت فتكتب مصورة وملحنة ، ومقسمة للكلام على تقاسيم شعر خفي تتحرك به النفس

واتفق لجانب هذا انها كانت قد أوتيت فيما أوتيت من مواهب قوة الفصاحة اللسانية والتعبير العجيب بروعات الصوت واشارات النظر واليدين . فلم تلبث ان ظهرت بمظهر الخطيبة التي لا تجارى وهي تلقي كلامها من فوق أعواد المنابر . ولقد يبلغ بك الظن وأنت تسمعها تخطب انه لو ان ممثلة من كبريات الممثلات أخذت كلامها وألقته لآلت عندها من ابراز المعاني ما عند مي بهذه السهولة وذلك اليسر . فلا ننسى انها كانت لها هذه المقدرة العجيبة من غير كلفة ومن غير ان يبدو هناك عناء او تصنع

مضت في كتابتها ناحية هذا النحو واستطاعت به ان تتناول اغراض الحياة وان تبحث فيها كما يبحث الذين يشتغلون بالصحف أو بتأليف الكتب الاجتماعية القريبة التناول . وذلك بقصد اشاعة فكرة الخير والعدل بين الناس ، والتنبيه الى كل ما هو واجب او مستحب لنهضة الأمة تارةً ، ولنهضة كل فئة من فئاتها تارةً أخرى . وبهذا نزلت الى ميدان العمل

الكتابي ، ولكنها بقيت في طريقها من الانشاء الشعري الاحتفالي . ورأت بعد ذلك لاستكمال ثقافتها ان تقرأ ما شاء الله من دواوين العرب وأمهات كتبهم . وكذلك قرأت من دواوين الفرنجة وأمهات كتبهم ما لا يكاد يحصى . ثم اندفعت لتعلم اللغات الأجنبية وأتقنت منها بقصاً اتقاناً كان يحار له ابناء تلك اللغات . وفرق هذا طالعت المذاهب الفلسفية المختلفة وكانت تتحدث حديثاً عجباً بموازنات بين الادباء أحياناً والشعراء أحياناً والفلاسفة أحياناً بما يُقضى له عجباً

فمع كل هذا العلم الواسع والادخار الكبير من ثمرات المطالعات التي لم تنقطع عنها يوماً أو بعض يوم ، وأفنت فيها معظم مجهوداتها كان الشعر من حيث هو أعاريض وقوافٍ قد أصبح من الاشياء التي تفكر فيها كما يُفكَّر في التحف الفنية ، والألطاف البديعة ، والزينات الشائقة ولكنها لم تر ان تذهب في مطالبة نفسها بهذه الصناعة إلى أبعد من هذا الحد

لم يحصل أن بيَّا نشرت ديواناً على ديوان أو فضلت شاعراً على شاعر — وهذا بقدر علمي — وكان يطربها في الشعر ويأخذ من نفسها كل مأخذ إما الشعر العالي الخيال ، المخدوم الصياغة الذي ينبه في النفس العواطف تنبيهاً قوياً ، وأما الشعر الذي كتب لأغراض موحَّدة فُصلا فيه تفصيلاً محكماً ، وقدَّرت أجزاؤها تقديراً مترابطاً ، وانتهت به الى مغازٍ ومرامٍ تتبع موقعها من انسانية عامة أو من أمة معينة يكون قد كُتب لها ذلك الشعر

لم تغرم مي بالموازنات بين شعر وشعر لأنها كانت تخشى بذكر ايثارها لنوع من الشعر على الآخر أن يكون في ذلك تثبيط لأية حركة تريد امم الشرق أن تندفع بها الى تعديل أو تبديل أو اصلاح فيما ألفته وجدت عليه دهراً طويلاً

بقي أن أقول لك — وذلك ليس من موضوع شاعرية مي — أن كل عنايتها كانت اصلاحاً في الاخلاق والآداب ، اصلاحاً في روح الأمم ومطالبها اصلاحاً في المعاشة بين الجنسين ، اصلاحاً في التربية — وخاصة تربية الاطفال ، اصلاحاً في توزيع الاحسان وتدبير شئونه بدل أن يكون مقصوراً على صدقات تكاد تكون بلا قيمة في النهاية . ذلك كله كان موضع عناية مي ومثار مشاغلها ، وأما منافستها في المسائل العلمية فكانت تجد سامعيها ، ولم يكن كلامها في مسألة كلام طارٍ سبيل ، أو حديث غير المتثبت ، بل كان كلام الواثق ، وحديث العارف . وما ادعت يوماً أنها فيلسوفة وكذلك كان موقفها من الشعر تقرأ وتفهم ما هو أحلى وأصفى ولكنها لا تدعي أن تتعرض للمفاضلة . أعني بجملة الكلام كانت في نهاية أمرها قد بقيت فيها روح الشاعرية كامنة ، ولكنها — على كون هذه الروح فيها — لم تشتغل بالشعر ولا حوالية من حيث هو صناعة

حديث مي

ليس الحديث مع الأموات بأجسادهم الفانية بدعة ، فلقد أتاحت لي مي في خلال قراءاتي الكثيرة لكتبها ومقالاتها أن أصطنع معها بالروح حديثاً ، وأجلس معها بضع ساعات كما جلست مع حضرات الافاضل الذين سجلت لهم أحاديثهم كما شاءت « المقتطف » أن أصنع

ولم يكن حديث « مي » معي حديثاً نطق به لسانها أو انفرجت عنه شفتاها ، أو تكيَّف بصوت مخصوص ، أو جَرْس مسموع ، ولم أسمعه بنغمة أو نبرة أو لفظة ، ولم يصل الى مسمعي كلاماً مرتلاً ، أو لحناً مسلسلاً . .

ولكنه حديث أخذتُه من خلال كتبها ، واقتطفته من بين مؤلفاتها ، ولقد حافظتُ فيه على الأصل ، وأبقيتُ فيه على كلماتها ذاتها ، وتنقلتُ في الحديث من كتاب الى كتاب ، ومن صفحة الى صفحة

وما كتابات مي في كتبها ، ولا عباراتها في مؤلفاتها ومقالاتها ، وخُطبها ومحاضراتها الاَّ أحاديث مسطورة لسانها ، مكتومة في حيها . فاذا عرضتُ اليوم بعضاً منها فما زدتُ على أني تصورت « ميًّا » الكاتبة « تتحدَّث » بما كتبتْ ، وتمثَّلتُ ميًّا المؤلفة « تتكلم » معي بما ألَّفتْ ، أو بعبارة أصح وأوضح ما زدتُ على أني أنطقتُ « ميًّا » الصامتة اليوم لتتحدَّث بعباراتها هي ، وبألفاظها هي التي وردت في كتبها أو آثارها . . .

ولستُ في هذا بمفترٍ على مي أو بمجترىء على قداسة روحها وجلال موتها ، ولستُ في هذا أيضاً بكاذب على القراء حينما أصطنع الحديث مع الأموات ، فان « ميًّا » الجثة الهامدة والهيكل الفاني والجسد الترابي قد مضى الى التراب ليختلط بذراته ثم يكون بعد ذلك أديماً للارض التي يجب ان نخفف الوطء فوقها . . .

أما « مي » بروحها وفكرها وبالمعاني المعنوية فيها فهي خالدة باقية نتصورها محدِّثة ولا نجد غضاضة في قبول هذا التصور ، ونتخيل أنها تتكلم معنا بكلام هو الرجع والصدى لما صدر عنها في كتبها من كلام

١ — سألتها : (لقد زرت يا مي « عين زحلتا » بلبنان ، ورأيت نهر الصفا يتدفق عند قدم جبل فماذا أوحت اليك هذه الزيارة ؟)

فقالت لقد خاطبت النهر قائلة :—

أنهر الصفا ! جئتك نسمة الروح والجسد معاً

فرأت خلاصة الأحوال الحاضرة فدوى في مخيلتي هدير المدافع وتمثلت لناظري صور الحرب المخيفة ، ثم قصدت الاجتماعات فملأ أذني ضجيجها الثافه ، وضجرت نفسي من معانيها السطحية ومراميها الخبيثة . عجبت لبلاهة الانسان وركاكة أمياله وفتور همته . اذ ذاك سمعت إسمك الموسيقي فأحببته لأن فيه جمالاً وعذوبة وسلاماً .

على هذه الصخرة حيث أنا أحلم نحتُّ بما شربتهُ مشاعري من رحيق الخيال العلوي كان يجلس الأمير بشير الشهابي الكبير . كثيرون بعده وقبلي جلسوا هنا وفؤاد كل منهم منقبض تهيباً وخشوعاً أمام أنفاس الطبيعة وأصوات الخلود . ما يجول بخاطري الآن كان يجول بخاطرهم لأن الأفكار تتشابه في العصر وفي النتيجة رغم تشعبها وتفرعها ، والرغائب الكثيرة اللاصقة في أعماق النفس هي هي في كل آن ومكان (من كتابها : ظلمات وأشعة)

٢ — فسألتها : (في الحرب الطاحنة الآن جنّ جنون البشر ، فالبر في خطر والبحر في خطر ، وكل يوم تغرق سفينة او بارجة ، فهل تذكرين غرق « لوزيتانيا » في الحرب الماضية وماذا أثار غرقها في نفسك ؟)

فأجابت موجهة الخطاب الى لوزيتانيا : —

لوزيتانيا ! لوزيتانيا !

سوف ينتقم لكِ البشر من البشر . سوف يقيم التاريخ لكِ ولأخواتك جميل الآثار . سوف تنظم لك الأناشيد . ويعزف لذكرك طروب الآلات

واذا سئلت في أعماق الهاوية عن الانسان الذي أبدعك واستخدمك فقولي أنه ما زال كبير المطامع موفور الغرور ، وأنهُ في غروره قد أحسّك وكأنك

واذا سألتك روح الهاوية مذهولة : إذَنْ كيف فتك بك ؟ فأجيبي بما يقولونهُ في ربوعنا من أن الذي قضى عليك ليس التحالف الملقب بالانساني . بل البطاش المنعوت بالجرماني ....

(من كتابها : ظلمات وأشعة)

٣ — فسألتها : (ما رأيك في الحب ؟)

فأجابت : ما أعظم الحب . وأشرفهُ في القلب المتحضر الحكيم ! هو أقدر عامل ينهض بالانسانية منهلاً طريقها محققاً آمالها ، خالقاً من أبنائها الابطال والجبابرة ، وأجل الارواح وأكبر القلوب وأنبل النفوس انما هي تلك التي يظل فيها سهر الحب دائم الفيضان وتظل تبعث

شعاع شمسنا الداخلية الى ما وراء الفرد والبيت والوطن فتمتد على كل شيء وتضيء كل شيء

الذي يحب كثيراً يفهم كثيراً لأن الحب أستاذ ساحر تتعلم منهُ بسرعة ويفتح لنا رحب الآفاق يهتم فيها صوته المحي الذي لا تسكته أصوات الأفراح والأحزان . ولكن كم نصغر الحب ونحقره عندما نحصره في الموضوع الواحد الذي تدور حوله الروايات والأشعار الغزلية، ونلمس انهُ الرابطة الكبرى ، كدت أقول الرابطة الوحيدة بين أجزاء الكون وبين الانسان والموجودات ، وانهُ هو وحده دواء السآمة الناجع وبلسم التعزية الفعّال

(من محاضرتها : غاية الحياة)

٤ — فسألتها : (ما رأيها في موجة الدمقراطية التي لمست مصر في العهد الحديث ؟)

فأجابت : (لقد لمست موجة الدمقراطية شواطىء الشرق الأدنى ، وأول من هتف بها في مصر احد لطفي السيد بك « باشا » ، يوم كان بعضهم يطلقون عليهِ مزاحاً لقب الفيلسوف الديمقراطي . ولم تقف المسألة عند حدّ المزاح بل هرلاق من اعتناق الافكار الحديثة مصائب واحتمل سخافات ... وهنا الوقائع التاريخية تقضي بالاعتراف بأن اسم الدمقراطية جديد في هذه البلاد ، ولكن معناها غير جديد . لأن الاسلام كان أبداً ديمقراطي المبادىء ديمقراطي الأساليب . وهل من ديمقراطية أتم من ان نرى الملوك يتخذون لهم من الجواري زوجات شرعيات ويرفعونهنَّ الى مرتبة الملكات . أو هل من ديمقراطية أوفى من أن يخرج من الطبقة الدنيا قوم يرتقون بكفاءتهم الشخصية ورجاحة عقولهم فيحتلون أعظم الالقاب ، ويتقلدون أجل المناصب ؟ (من كتابها : المساواة)

٥ — فسألتها : (كيف يؤثر فيك منظر الربيع المودع والنضارة الزائلة ؟)

فقالت : أشرقت الشمس وعلت فوق ذرى الجبل الواحد الذي يحتفر عاصمة أبي الهول ، ومضت الأطيار الى عملها النهار وليس على الغصون من طير يصدح . واستيقظ أهل المدينة ، وبدأت حركة الشوارع ، واستؤنفت جلبة العمران . وفاض النور على جوانب الأفق وساد طليقاً في كل مكان . وهما قليل تشتد حرارته فتصليا بسعير الظهائر والهواجر

، ثم وجهت الكلام الى الربيع المودع قائلةً) : —

أكذلك وداعك ، أيهذا الربيع ، في آخر صباح من أصباحك ؟

وهل أنت تقبل كما يقبل الواحد منا ، وتدبر كما يدبر ، وتسلم وتودع مثلنا سواء بسواء ؟ أم أنت تتولد من قلب الشتاء كما يتولد الفرح من قلب الترح وتذوب عناصرك في مطلع

الصيف فتمده بالقوة والحيوية كما يعني الأمل مصادر النصح في الانسان ولعلمهُ كيفية التحقيق ؟

ألا ان هذه الحياة متحاكمة الحلقات ، متسلسلة الوقائع ، متضافرة الطرائق ، متلازمة الاضداد ، نحسب اننا نحذقها ونفسرها ونتصرف فيها ، على حين هي تعالجنا وتتصرف فينا من غير ما شرحٍ ولا تفسير ! »

(من « وداع الربيع » : المقتطف يوليو ١٩٣٠)

٦ — فسألتها : (هل شعرتِ يوماً بأنك غريبة في مصر ؟ وما رأيك في العلاقات بين مصر وسوريا ؟)

فقالت : مصر . سوريا وطن واحد ما زالت العلاقات المتبادلة تزيده كل يوم توحيداً ، السوري في مصر بين اهله واصحابه ، والمصري في سوريا بين ذويه وأحبابه

أنات مياه النيل صدى آهات النسيم في غابات سوريا ، والطبيعة التي تزجر هناك بين المرتفعات والمنحدرات تراح هنا منبسطة على صفحات المروج الفيحاء

مصر وسوريا ، كلاهما قسمتان مختلفتان من لغة جميلة

مصر وسوريا ، كلاهما حسن وكلاهما محبوب . لكن تبادل الاحسان والمحسوبية يؤيد صداقتهما ، ويزيد في اتفاقهما ، ويجعل قلبهما خافقين على وفق نغمة واحدة

(من كتابها : كلمات واشارات)

٧ — فسألتها : (لقد بدأ العام الجديد عام ١٩٤٢ . فهل عندك كلمة تحيين بها مطالعه ؟)

فقالت : تمهيداً لذلك اليوم الآتي أحيي الآن كل متشح بالسواد ، أما السعداء فليهم من نعيمهم ما يغنيهم عن السلامات والتحيات

أحيي الذين يكون بقلوبهم ، أحيي كل حزين ، وكل منفرد ، وكل بائس ، وكل كئيب ، أحيي كلاً منهم متمنية له عاماً مقبلاً أقل حزناً وأوفر هناءً من العام المنصرم

نعم للحزين وحده يجب ان يقال : عام سعيد !

(من كتابها : سوانح فتاة)

***

والى هنا طويتُ كُتبَ « مي » البعثرة على المنضدة أمامي ، ولمعت آثار « مي » القلمية المنتثرة بين يديَّ وبين خلدي ...

وبدا أول وميض من نور الصباح الباكر ينفذ الى غرفتي من خلال الزجاج ، كأنه يدعوني الى الاستعداد للعمل ، والتأهب لاستئناف النضال اليومي في سبيل العيش

فنحيت كتب مي ناحيةً وقلت :— الى هنا طويت الكتب ، لتنشر بعدها الأحاديث

وإنما المرء حديثٌ بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

محمد عبد الغني حسن

تأثير الاوبئة

في الحروب الماضية

«من الاقوال العامة في الحرب والسلم المسلّم بصحتها قول قديم مؤداه ان المرض في الحرب أفتك بالجند والناس من الاسلحة . وقد أشار المؤرخون الى ما يؤيد هذا القول في حملة زركسيس الفارسي على اليونان ، وفي الحروب الصليبية ؛ ثم في حرب الثلاثين سنة وغيرها من الحروب التي تلت الثورة الفرنسية ولا سيما حروب نابليون في عهده الأخير عند ما ضاق الخناق عليه وعلى فارة اوربا . أما الحروب القريبة منا فنهم حرب القرم وقد تفشت في أثنائها حمى التيفوس والهواء الاصفر والديسنطاريا وغيرها في صفوف الجيوش الروسية والبريطانية والفرنسية فتتكت بها فتكاً ذريعاً وحصدت من النفوس أضعاف ما حصده القتال . وفي الحرب الاميركية المكسيكية (١٨٤٦—١٨٤٩) بلغت الاصابات الناشئة عن المرض في الجيش الاميركي سبعة أضعاف الاصابات الناشئة عن القتال . وفي الحرب الاهلية الاميركية قتل المرض من الجند ١٨٦ الفاً ولم يقتل في المعارك سوى نصف ذلك »

هذه الفقرة كانت استهلال مقال في «الحرب والمرض» نشرناه في صدر مقتطف اغسطس الماضي . وكان مداره على ضروب التقدم العلمي والطبي الحديث في مواجهة المشكلات الناشئة عن المجاعة وتفشي الامراض في اثناء الحرب . ثم اطلعنا على مقال لشرفي «المجلة الارلندية للعلم الطبي» فصّل فيها الكاتب عدد ما ذهب من الناس ضحية الامراض والاوبئة في الحروب الماضية فلخصناه في ما يلي : —

كانت الحرب العامة الماضية (١٩١٤—١٩١٨) الحرب الاولى في تاريخ البشر — على مدى علمنا — التي لم يزد فيها او في مناطق القتال الفعّال في غرب اوربا على الاقل ، الوفيات ضحايا المرض على ضحايا القتال . ففي حرب البوير في اواخر القرن الماضي ؛ اربى عدد الوفيات بالتيفود على القتلى بالرصاص . وقد بلغت قوة الجيوش البريطانية في أثناء القتال ٥٥٧ الفاً أو ٢٢٦ر٢٠٨ محارباً على المعدل ، أصيب منهم ٥٧٦٠٤ جنود بالتيفود وتوفي من هؤلاء ٨٠٢٢ مصاباً . وبلغ عدد المتوفين من المصابين بأمراض اخرى ٣٣٠٥ مصابين فكان المجموع

١٠٣٢٧ أما عدد الذين قتلوا في الميدان او متأثرين بجراح اصيبوا بها في الميدان فبلغ ٦٤٢٥ جنديًّا فعدد ضحايا المرض بالقياس الى ضحايا القتال كان ٧ الى ٤. ولكن بحث تأثير الأوبئة في الحروب لا يقتصر على بحث حالة المجندين بل يشمل كذلك حالة المدنيين. ولذلك يجب ان يضاف ١٤ الف طفل و ٥ آلاف من الكبار في المعتقلات توفوا مصابين بالحصبة والسعال الديكي والتهاب الغدة النكفية والدفتيريا والتيفود. فيبلغ عدد الذين توفوا بالمرض في اثناء تلك الحرب ٣١ الفاً وهذا رقم لا يدخل فيه حساب خسارة البوير أنفسهم

أما كون الوفيات الناشئة عن المرض كانت اقل من الوفيات الناشئة عن القتال، في الحرب العالمية الماضية، فيجب ان يعد ظفراً عظيماً للطب الحديث. ولكن الاصابات والوفيات الناشئة عن المرض في مناطق حربية بعيدة كبلدان اوربا الشرقية والبلدان الآسيوية حيث تفشت اوبئة التيفوس والتيفود والكوليرا، وربما الطاعون، كانت عظيمة حقًّا

وصف توسيديديس المؤرخ اليوناني المشهور الوباء الذي اصيبت به اثينا في اوائل القرن الخامس ق. م. وليس ثمة شك — اعتماداً على وصفه — في انه كان وباء حمى التيفوس، وان كان في بعض أقواله ما يشعر بأنه وباء طاعون. وقد كان الطاعون على ما يظن معروفاً لليونان القدماء ولكن هذا الوباء الذي تفشى في اثينا كان مرضاً جديداً لا عهد لاطبائها به من قبل

والغالب ان وباء التيفوس هو أقدم أوبئة الحرب وأوسعها انتشاراً. بينما يغلب على الرأي ان انتشار الطاعون يتبع الاختلاط التجاري، وتفشي الملاريا يشمل الجيوش التي تنزل في البطائح او البقاع التي تمكن منها هذا المرض. اما التيفوس فيبدو انه دائماً متصل بالحرب والمجاعة والقذارة والازدحام ولا يقتصر تأثيره على الجيوش بل يشمل الاهلين كذلك. ومن المحتمل انه كان مصحوباً في أثينا بالحمى الراجعة وحمى التخاع الشوكي وربما الجدري. ولكن المرجح ان المرض الغالب في الوباء الاثيني الذي وصفه توسيديديس كان مرض التيفوس

وكانت حمى التيفوس قد أصبحت نادرة في اوربا قبل الحرب العالمية الماضية وما بقي منها كان معروفاً على الاكثر في بولونيا الروسية وتركيا والى شرقها. أما كيف فشا وبأ التيفوس وانتشر في اثناء الحرب العالمية الماضية فقصة عبرة لمن يعتبر. فقد بلغت الاصابات به في بولونيا ٤٠٠ الف توفي منها ٤٠ الفاً أي عشرة في المائة من المصابين. ونقل الاسرى الروس العدوى الى المانيا والنمسا. ولم يكن في الجيش الصربي إصابة ما بها حتى احتل بلدة فالييفو على حدود البوسنه فأسر هناك ٤٠ الف اسير وكان بينهم ثلاثة آلاف مريض وجريح وكان بين المصابين عدد وافر مصاباً بالتيفوس. وكان الصربيون في حاجة الى اليد العاملة فنقلوا الاسرى في طول البلاد وعرضها فانتشر وبأ الحمى حاصداً الناس حصداً. وفي مارس سنة ١٩١٥ تولّت بعثة

طبية بريطانية مكافحة الوباء فحدّت من انتشاره أولاً ثم تغلبت عليه . ولكن خسارة سوريا بلغت ما يزيد على مائة الف توفوا بهذه الحمى الخبيثة

وبعد ما انتهت الحرب انتقلت طوائف كبيرة من السكان من بولونيا الى روسيا ثم من روسيا الى بولونيا فشاع وبأ التيفوس ثانية وأصبح خطراً كبيراً على صحة سكان اوربا . ولكن نشاط القسم الصحي بجامعة الامم حال دون انتشاره . ولا يعلم عدد الذين توفوا بالتيفوس في هذه الفترة ولكن الهيئات الصحية التي كانت تكافحه في بولونيا خسرت ١٨٥ من اعضائها به

وقد روي من عهد قريب ان الاصابات بالتيفوس بدأت تظهر ثانية في شرق اوربا

ان تاريخ الحروب الصليبية حافل بذكر الأمراض والاوبئة، ولكن ليس في وسع المؤرخ الطبي ان يقرر الأمراض التي كانت منتشرة فعلاً حينئذٍ . فالامبراطور فردريك بربروسا فقد كل جيشه بعد استيلائه على روما في سنة ١١٦٧ والغالب ان حمى التيفوس كانت سبب هذه الكارثة. ويقدر عدد الذين ذهبوا ضحية المرض في الحرب الصليبية الاولى من رجال الجيوش او المتصلين بها بنحو مائة الف والغالب ان الطاعون كان سبب وفاتهم . ولا يعلم على وجه التحقيق عدد الذين توفوا بالطاعون في حرب الثلاثين سنة لأن الطاعون كان مصحوباً بالتيفوس والديسنطاريا . غير أن سكان اوربا تقصوا في هذه الفترة من ثلاثين مليوناً الى ١٣ مليوناً ولم يزد عدد الذين توفوا متأثرين بجراحهم على خمسمائة الف

أما في حرب القرم فقد خسر الانجليز ٤٦٠٠ من القتلى و١٧٫٥٠٠ متوفين بأمراض شتى وخسر الفرنسيون ٢٠٢٤٠ من القتلى و٧٥ الفاً من المصابين بمرض ما . وذلك لان الجيش على ما يلوح نقل معهُ الكوليرا من فرنسا . وفي الحرب الاهلية الأميركية اشترك في القتال مليون جندي فقتل منهم ١٨٢ الفاً ومات بالمرض ٣٦٤٥٨٦ أي ضعف عدد القتلى . ومجموع القتلى والموتى يربي على نصف الجنود الذين اشتركوا في القتال [1]

ولم تعب الجيوش الالمانية في حرب سنة ١٨٧٠—١٨٧١ بخسارة فادحة ناشئة عن المرض إذ لم تزد نسبة الوفيات بالمرض الى القتلى عن ٧ الى ١٣ ولكن الحرب نفسها كانت باعثاً على انتشار وباء الجدري وهو وباء وصف بأنه من أشد اوبئة القرن التاسع عشر . فمات به ٢٠٠ الف في فرنسا وأصيب ١٤ الف من الاسرى الفرنسيين في المانيا فأفضت هذه الاصابات

(١) في مقال « الحرب والمرض » الذي تقدم ذكره أرقام تتعلق بان عدد القتلى في الحرب الاهلية الاميركية بلغ ٩٤ الفاً والمتوفين مصابين بمرض ١٨٦ الفاً . وبين الارقام الواردة في المقال الماضي والارقام الواردة في هذا المقال بون شاسع والارجح ان مقال الاول يشير الى قتلى وموتى جيش الشمال دون جيش الولايات الجنوبية

الى تفشيه في مصر حيث مات به ١٧٠ الفاً وانتشر في سويسرا وبلجيكا وهولندا ثم في ايطاليا والنمسا وفي انجلترا. فعدد الوفيات بالجدري في بريطانيا لم يزد على ١٥٠٠ في سنة ١٨٦٩ ولكنه بلغ ٢٣ الفاً في سنة ١٨٧٢ ولم تنجُ من آثاره البلدان الكندياوية وروسيا وجزائر الهند الغربية وجزائر المحيط الهادي.

وقد لا تعد الانفلوزا من أوبئة الحرب بحصر المعنى. ولكن الوباء الذي تفشى سنة ١٩١٨ — ١٩١٩ يعد أحد الأوبئة الكبرى في التاريخ. ففي عصر الامبراطور يوستنيانوس دام وباء الطاعون اثنتين وخمسين سنة وبلغ عدد الوفيات به في القسطنطينية عند ما بلغ اشده من خمسة آلاف الى عشرة آلاف كل يوم ودام ذلك نحو ثلاثة اشهر. ويقال ان وباء القرن الرابع عشر المعروف بالموت الاسود حصد ٢٥ مليون نفس أي ربع سكان القارة الاوربية حينئذٍ. ولكن هذين الوبأين لم يتفشيا تفشيًا عالميًّا كما تفشى وباء الانفلوزا الذي ذاع في اثر الحرب العالمية الماضية. ولا يعلم عدد الوفيات التي نشأت عنه في شتى بلدان العالم. ولكن اذا أضفنا الوفيات به في الصين وروسيا الى خمسة ملايين وفاة في الهند و٨٠٠ الف في ايطاليا و ٤٥٠ الفاً في الولايات المتحدة و٢٥٠ الفاً في اليابان و ٦٠٠ الف في المانيا وارقاماً اخرى على هذا النمط في بلدان اخرى فقد لا يقل عدد الوفيات به عن عشرين مليون وقد يبلغ ثلاثين مليوناً

وليس ثمة ريب في ان الجوع ونقص الغذاء يفضيان الى كثير من المرض والموت ولا سيما في أثناء الحرب، عند ما توزع الاقوات بالجراية والبطاقة، ومن هنا ما رويناه قبلاً في المقتطف من عناية بلدان شتى كبريطانيا والمانيا والولايات المتحدة بالاعتماد على البحث العلمي في جعل الجراية المتاحة لعامة الشعب محتوية على جميع عناصر الغذاء الأساسية. وهذا البحث العلمي في الغذاء نشأ معظمه عن أمراض نقص الغذاء التي تفشت في أوربا بعد الحرب الماضية، وفي سائر البلدان حيث مستوى الغذاء العام دون الحدّ الوافي بحاجة الجسم

ففي فينّا مثلاً انتشر الكساح انتشاراً عظيماً في سنة ١٩١٨ وهناك كشفت حقيقة عظيمة الشأن في علم الغذاء الحديث وهي ان ضوء الشمس يحلّ محلّ فيتامين D. والأمثلة على ذلك كثيرة. والاسكربوط — وهو من أمراض نقص الغذاء — مرض يقترن انتشاره دائماً بالحروب. أشار اليه أبقراط وتفشّى في أثناء الحروب الصليبية وحرب القرم وحصار باريس ١٨٧١ وبورث آرثر ١٩٠٤ — ١٩٠٥ وبلغ عدد الاصابات به في الحرب الأهلية الاميركية ٣٠ الفاً وانتشر انتشاراً واسعاً في روسيا وبلغاريا ورومانيا وصربيا والمانيا والنمسا في الحرب العالمية الماضية وكذلك الزهري وذكره الأول في أوربا يرتدّ الى القرن الخامس عشر ويقترن بحملة شارل الثامن على ايطاليا وعند ما تفرّق جيشه نشر هذا الداء في انحاء اوربا

رابندرانات تاجور

كما أعرفه

محمود الخضيري

— ١ —

وُلِدَ تاجور في مدينة كلكتا عام ١٨٦١ م ، وكان أبوه صديقاً متعبداً ، يخرج كل يوم الى منسكٍ له بالغابة ، غدا فيما بعد مدرسة تاجور التي أشرقت منها مبادؤه الروحية والعالمية . وكان تاجور في صباه حدثاً متروكاً لرعاية أم لم ينعم بحنانها الا قليلاً ، اذ توفيت بعد مرض أصابها ، فكان لوفاتها في ذكريات تاجور أبلغ الأثر وأعمق التأثير . ولم يجد تاجور في بيته رعايةً ، اذ انصرف أبوهُ عنهُ الى منسكه ، يحدّث الناس والاتباع فيما يدعو اليه الرجل الحكيم الفيلسوف من النظر والتفكير في النفس وفيما حولها من كائنات . فنشأ عروماً من حنان الأم ورعاية الأب ، ولكنهُ خرّج من الفجيعة سُلْوانًا اذ لجأ الى الطبيعة ينظر فيها ويعيد النظر والتفكير ، حتى ارتسمت في خياله الصغير صور الحياة ، ولقد سجل تاجور هذه الفترة من صباه في كتاب أرسلهُ الى صديق فقال فيه :

« لم تلبث ان حرمتني الايام من أمي وأنا حدث صغير فأصبحت وحيداً بالقصر ، آوي الى فراشه ، ارقب الحديقة فارتسمت في خيالي ما يجول بها من صور شتى ، لقد كانت لي الطبيعة الرءوم التي لازمني والذي وجدته جديراً دائماً . بأن لا أعرفه حقاً ولكنه رفيق مخلص يصغي كل شيء » (١)

ولما بلغ أشدَّهُ ذهب به الى المدرسة ، ولكنه لم يلبث ان نالها ما يثبط قلب الطفل البريء من اعوجاج نظام لا يتفق مع ميوله الحرة ، فخلق سوء نظام المدرسة من قلب تاجور ، المربيَ المجددَ الحبَّ للطفل ، والذي يرى فيه العالم منطوياً الى حين ، فهجر المدرسة ساخطاً ، ولكن والده الشيخ عهد به الى اساتذة آخرين يعلمونهُ في البيت ، فلم يغير هذا التعليم من رأيه ، ولقد قال يوم افتتح مدرسته

« لقد قلت لكم اني منذ ما أنشأت هذه المدرسة ، لم تكن في خاطري ما بالتعليم ، ولكني في الواقع اكتسبت منذ تلمذتي خبرة سيئة عرفت منها ما يجب ألا يعامل به الطفل ، وهو ما كان موضوع الأسى وكنت أتألم مدة طفولتي من شعوري بان التربية التي كنت أتربى في نظامها في مدرسة لاصلة لها بالعالم »

وليث تاجور في البيت بين اساتذته ، فتلبيت مواهبه التي أثمرت منذ الطفولة حب

(١) « ذكريات » تاجور

الطبيعة وجمالها، فمال الى الأدب في حداثته ، فنظم الشعر والأناشيد، وكتب القصص الصغيرة محاكياً شعراء البنغال ، حتى اذا ما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، استرجع ما بقلبه من صور وامتداد اشباح السنين الماضية ، واتخذ منها العبرة والتفكير ، واستوحى الطبيعة التي نشأ في مهدها يتيماً محروماً ، وصوّر الآلام التي تتابعت عليه منذ فقد أمه ، ومنذ حرمانه معين العطف والحنان ، واستوحى الى هذا ما كان قد قرأ في الكتب الدينية من أساطير وقصص فكتب في هذه الفترة « أناشيد المساء » ثم « أناشيد الصباح » وهما صورتان متقابلتان من وجهي الحياة التي تعرض للشباب، يأساً حيناً وأملاً حيناً، حزناً حيناً وفرحاً حيناً ، حبّاً حيناً وتردداً حيناً

ولقد كان تاجور في هذه الفترة يلحن الاغاني الدينية ويرتلها في المعبد بصوت أغنى حبّب الناس فيه ولفت اليه انظارهم . وفي هذه الفترة الدقيقة من الحياة ، عندما يتفتح قلب الشباب ، ويُقبل ربيعُ الحياة بهيجاً أو عابساً ، في هذه الفترة الدقيقة من الحياة يجب أن نبحث عن أثر المرأة في الشاعر . ولكن تاجور قد تركنا دون ان يرشدنا الى المرأة التي ألهبت قلبه ، والتي علمتهُ أغنية الحب الاولى — لقد قال ان الطبيعة هي التي علمتهُ كل شيء، ولكن الطبيعة لا تعلّم الحبَّ ، وإنما تعاون الشاعر على ان يدرك معاني الحب ، وهو لم ينشر كتبه حقب تأليفها ، وهو لم يقدم لنا شعره طبق السن التي قاله فيها — ولذلك اضطرب ادباء الغرب جميعاً في تخريج شعر الشباب من بين أشعار تاجور الصوفية ، وذهب أغلبهم الى وهم ماثل، فغلّبوا الصورة الصوفية على جميع أشعار تاجور — ولكن كيف لا يحب تاجور ، وهو شاعر الحب الذي دلَّ الذات البشرية على طريقه المقدَّس ، كيف لا يحب تاجور وهو الذي يدعو الناس الى الانسجام بروح الكون — ان المرأة ولا شك ، قد لعبت بأناملها أدقَّ وأعزَّ الانغام القدسية في قلب هذا الشاعر — ان خيال المرأة يدور دائماً في شعره ، بل ان شخصها لقائم في ديوانه، وان عطفها وحنينها لمترددان دائماً بين صفحاته الكثيرة التي ألّفها في عهوده المختلفة

وأغلب ظني عندي ان تاجور كتب في فترة شبابه رواية « شترا » وهي مسرحية غنائية اقتبس فكرتها من اساطير الهند السنسكريتية من كتاب المهابهراتا المقدَّس . و« شترا » امرأة نشأت نشأة الرجال لترث ملك أبيها ، ولكن قلب المرأة لا يغلّف ولا تسكبت فيه الأنوثة ولا الحنين الى الطفل هي لم تخلق الاّ لتكون عوناً للرجل ومهبطاً لقلبه وأمّاً لولده ، ومشاعرها جميعاً توحي اليها ان تكون نظاماً مكملاً للاضداد فهي كالسلب من الايجاب وكالضوء من الظلمة وكالحركة من السكون [1] — وعندما تقابلت « شترا » بأرجونا أول رجل

(١) « ي » في محاضرة سنة ١٩٢٦

لقيت تداعي استرجالها وتنتحت أنوثتها وعصف الحب بقلبها. وهنا يقول تاجور على لسانها:

« لقد شعرت أني امرأة وخلقت زي الرجال وعدت بقلبي الرجل »

ولبث تاجور في كلكتا حتى دعاه ابوه الى القرية ليتولى أمر ضياعه فعاد الى الريف وما لبث قليلاً حتى تزوج ، وكانت سنه قد قاربت الثالثة والعشرين . وقد أفاد هذا الانتقال تاجور اذ هيأ له الاندماج في الريف والاختلاط بالشعب والاستماع الى أحاديث الناس وأغانيهم وتاجور يقرر ان فلسفته انما هي فلسفة الشعب الهندي وفي هذا يقول : —

« لقد يحسب بعضكم فيما قرأ لي أني فيلسوف ، وربما كان لي حقاً من الفلسفة حظ ونصيب ، لكن ليس حقاً يفخر على شعري ويبدو فيما أبدي الى قاع سحيق تنمره مياه المحيط فلا يرى من خلالها الا كما ترى الاسماك الصغيرة تائهة وسط الليل العظيم ، إنما أنا ككثيرين من أهل الهند وفلسفتي لا تتعدى فلسفة الشعب ، وتلك عندي فلسفة التاعر » (١)

في فترة الريف عاش تاجور زوجاً باراً بزوجه واولاده ، هادئاً قانعاً بعواطفه ، فيها استمتع بجمال الحياة بقدر ما استمتع بلذة فكره وعصارة أخيلته، اذ ألّف في هذه الفترة أغاني وقصصاً وكتب روائع الشعر، ومن مؤلفات هذا العهد « البستاني » و« هبة العشاق » و« الهجران » وروايات ومسرحيات أخرى متعددة

لقد كان هذا العهد هو ربيع حياة شاعرنا الحكيم ، لبث فيه الى الاربعين ينعم بمباهج الحياة وأسرارها اللينة ، ويلقى الدنيا من وجهها الضاحك الباسم — ولكن ماذا بعد الربيع ؟ لاشيء غير خريف يترك الشجرة عارية من ورقها وزهرها . لاشيء غير وحدة في صحراء الحياة لمجالدة الزمن ، لقد هبّت العاصفة بدار تاجور المبهج فاتت زوجة والتقط مشعل ابنته الكبرى ثم لحق الشاعر الحزين في أصغر ابنائه ، كل هذا في بضعة أشهر ولكن تاجور ما كان ليتئس ، ولكنه كان ليرضى ، يستقبل الضر فيأنس منه الخير . ولقد سجل تاجور هذه الفترة في ذكرياته

« ان عاصفة هلوت التي اجتاحت داري وقصفت زهرات أبنائي ، كانت على نعمة ورحمة ، فقد أشعرتني بتعبي ، وبشقي الى انشاد الكمال والهمني ان النعيم لا يفتقد ما يضيع منه . لقد عرفت حقيقة الموت ، إنه الكمال المطلق وليس مر شيء في الحياة يدانيه عبثاً ، بل مرده الى رحمة ، تاركا الحبيبة عاليها وشكرتها

لقد ما زلت أنادي هذا الوجود لم توصد عليّ أبواب سجن ، لقد انتزع الثقل ، ذخراً كان في حوزتي ، ولكني آمنت في هذا الفقد معنى الحرية ، فاقتربت السكينة من نفسي ، ولم تعد الحياة تثقل عليّ ، اذ الموت رافع عبئاً في يوم ما » (٢)

في الحق ان هذه الفجيعة هي التي كانت السبب في تعريف تاجور لعالم الغربي ، اذ خرجت منه أناشيد الصوفية التي صبّتها قراءاته في اللغة البنغالية والتي ألف منها في أسلوبه وخياله

(١) خطاب تاجور في مسرح حديقة الازبكية بالقاهرة سنة ١٩٢٦ (٢) ذكريات تاجور

كتاب « جيتا نتالي » أي « القربان الشعري » الذي تقدم به الى العالم الغربي لأول مرة فعرفه وأحبه وأقبل على أدبه وشعره وفلسفته اقبالاً لم يلقهُ شاعر شرقي قبله غير عمر الخيام

و«القربان الشعري» نثر مسجع ترجم الى الانكليزية من البنغالية وهو يصور هذه الفترة القاسية من حياة تاجور، يصور الحريق بعد ربيع مبتهج، يصور صلوات وابتهالات متعالية من قلب حكيم شاعر مدرك لحقيقة الحياة، هو تصوف ورمز الى المثل العليا والجمال المطلق، وهو صورة مقابلة لهذا الشعر الغنائي العفيف الذي ثار به قلب تاجور أيام شبابه، والذي جمع من الحب والألم والأمل والحيرة واليقظة والتطلع والاستكانة والتردد ما جمع، والذي ضمَّ من أطياف المرأة أشباحاً حلوة تلوّح بالآمال والأماني تارة وبالنذر والخيبة تارة أخرى. هذا « القربان الشعري »[1] قد دفع الناس في الغرب من أدباء ونقّاد وكتّاب الى ان يخطئوا في فهم تاجور، لان تاجور قد قابلهم به في صورة المتصوّف فلما قابلهم بعد ذلك بأشعاره التي نظمها ايام الشباب حسبوا تاجور أيام الشباب هو تاجور بعد الاربعين — على ان تاجور في «القربان الشعري» كان الطائر المأخوذ بجمال الله وجلاله، ولقد قال عنهُ أحد النقّاد الفرنسيين

« إن القربان الشعري كأسرطة ناصعة بالفرح والامل ومحبة الله » ترانك لتدرك من ابتهال تاجور الذي يقول فيه :

« أنت الذي اريده ، انت وحدك
أنت يارب ! أنا معير اليك ، مأخوذ أبداً بك في صمت.
لست أعرف كيف أدرك اسرار الهامك
إن موسيقاك لتغمر الدنيا وتسري بأنغامها في ارجاء السماء
بينما يجتاز نغمها للقدس السدود ويخرق الاصفاد .
إن قلبي يتوان الى الاتصال بأغنيتك
وقد جاهد على ان يخرج الالحان طاهرة ليلتئم بألحانك .
ولكن حياتاً ما تحل قلبي
سأتكلم إذن ولكن انسى ليان ان يسمو على الالحان
إني جاهد لابعد عن نفسي خطايا الزمن
اني واثق فيك أيها الحق الكريم الذي أشعلت نور الحكمة في عقلي
سأبذل نفسي لاتصالك في جميع اعمالي
أيا قوتي ان قوتك تهبني الصبر على العمل

نعم انك لتدرك في هذا الابتهال الصورة الصوفية التي أخذت بلب تاجور، وإنها لواضحة المعنى في غير رمز، وانك لتجد هذه الصورة الصوفية حاضرة ايضاً في ديوان « قطف الثمار Fruit-Gathering — والصورة الصوفية التي تدور في شعر تاجور ليست الا الميراث الشعري لخالد الذي تلقاه الشاعر الحكيم من قلب هذا الشرق الكبير، الذي أوحى اليه بأصول المدنية الروحية التي لن تقهر ولن يمسّها وهن او ضعف

(١) ترجم « القربان الشعري » الشاعر الفرنسي اندريه جيد سنة ١٩١٤

ولقد قدّم « القربان الشعري » للعالم الغربي الشاعر الايرلندي الشهير ييتس بمقدمة بليغة قلّد فيها تاجور إمارة الشعر في العالم في القرن العشرين ، ولقد خاطب ييتس أهل الغرب ، وهو يقدم لهم « القربان الشعري » في قوله : —

دونكم نموذجاً سامياً لادب الشرق يجود به شاعره العالمي تاجور ، فيعطيكم صوراً للحب ليست كما عهدتم معشر الشباب من مجون وعبث ، ستجدون فيها أيها العشاق ترتيلا جميلا يدنيكم من الجمال ، ويقربكم من ادراك الحق والجمال ، ان تاجور صورة لهذا الشرق القائم العظيم ، ومهمة في الحياة هو ان يكشف للروح ، ويعرف اسرار وحدتها بين الكائنات ويتخذ له من فيها حصانة لادراك الحق المطلق وتهذيب العقل والقلب حتى تدرك الانسانية الكمال المثالي

ولبث الغرب متأثراً بوحي هذه الصور الصوفية العذبة ، فلما أخرج تاجور دواوين اشعاره التي جادت بها قريحة الشباب ، بقيت هذه الصور مترددة مطبوعة في أذهان الادباء ، فاختلط عليهم الامر وتناوله نقّاد بأنهُ شاعر صوفي بارع في المذهب الرمزي

وفي الحق ان ثمرات الشباب كديوان «البستاني» The Gardener و«الطيور الشاردة» « Stray Birds » و « الهلال » The Crescent Moon و« هبة العشاق والهجران » و « شترا » ، كل هذه وما اليها من اشعار الشباب انما تكشفنا على ناحيةٍ بهجة من حياة تاجور الاديب العظيم . وتدينا من أمر قد التبس على كتّاب الغرب ونقاد تاجور، وهذا الامر جليل خطر في حياة الشاعر وهو ليس بأفكار صوفية ، وانما هو وحي المرأة في قلب كل فنان وأديب وصاحب رسالة كشاعرنا تاجور

ان تاجور لا ينكر أثر المرأة فيه ، هو يراها قوة تعينه على الحياة ، لا يناهضها ، ولا يرى فيها الخصم العنيد ، بل ينشد فيها الحب والرحمة والتعاون ، وهو يخاطبها في ديوانه «البستاني» خطاب الفن والموسيقى فيقول لها :

أيتها المرأة لست من صنع الخالق وحده
بل أنت من فن الرجال
جمع أبدع ينثرون عليك الجمال من أعماق قلوبهم
فالشعراء ينسجون لك ثوباً من خيوط الخيال الذهبي ،
والفنانون يسبغون على جبينك فناً من الخلود الناضر
والبحر تأتي درره ، والناجر تنثر سجدها ،
والبساتين تتفتح عن أزهارها
كل هذا ليكون لك جميعاً حلية وزينة وبهجة .
بينما رغبات القلوب تنفح شبابك بهاء
أنت ... نصف إمرأة ونصفك خيال.

فالمرأة في شعر تاجور عامل حي يقظ متحرك ، خرجت في فترة شبابه من تسعة العقرية أعز ما تجود به الحياة من حب وجمال وسمو وفن وأدب وموسيقى . كانت لهُ فيما بعد

الاربعين سبيلاً مأموناً لادراك حقائق الأشياء ومعاني الصوفية العذبة التي ورثته اياها قراءاته في آداب الهند وفلسفة الشرق الحكيم ، ولقد استطاع تاجور ان يكتب فلسفة خالدة لهذه المعاني كلها، وان يبشر بها كأوضاع ثابتة لمدنية روحية ، يجب ان تسود العالم في وحدة متماسكة بعيدة عن الاثرة والانانية ، وما يدعو اليه الغرب من تعاليم آلية قائمة على المادة وحدها . فيتحدث تاجور عن الحب ويحاضر تلاميذه وأتباعه في مدرسته فيقول لهم :

« عجيب أمر الحب ، لا تتنافى فيه العبودية والحرية ، مما لا يتعارضان عند بابه ، بل يلتقيان فيه ويتآلفان ، لان الحب يستعبد بقدر ما يحرر ، وان غاية النفس الى العبودية لا تقل عن غايتها الى الحرية ، وان من أسمى معاني الحب ان يخضع القيود ويرضى بالحدود كما ان من معانيه السامية ان يحطم الاغلال ويحلق في الآفاق بعيداً عن كل سد وحاجز . الا ان العبودية في الحب مجد سام كالحرية . أوليس يسير غير الحب ما يحتمل الحب من ذل وعبودية ؟ » (١)

وغاية الحياة عند تاجور ان تُشبع الحياة البشرية بطابع الخير والمحبة ، وان تنتزع عنها طبيعة الانانية والاثرة ، فهو يقول :

« وحتى استقر في ضميرنا نظام للحياة ، واطمأن الى ما في الحقيقة من إيلاف منظوم ، أصبح ادراكنا لحب الخير جلياً وعالياً ، واتسم طابع الجمال حياتنا بميسم الخير والحب العام ، وتوجه هذا بالمدنية نحو البقاء والخلود ، هذا هو غاية الحياة »

وأعلن تاجور رأيه في الموسيقى فقال :

« الا ان الموسيقى هي أنقى وضع للفن ، لهذا كانت ادل تعبير وأوضح بيان للجمال في شكله وروحه ، وهي أقل الأوضاع حلا بأثقال التعبير عن الفن الخالص . وأقرب أوضاع الموسيقى وأقربها من الفن والجمال هو الصمت والعبادة »

وليس الادب والشعر في رأي تاجور خيالاً مكذوباً ولكنهما حقيقة وسناع بالحرية تدركها في نفوسنا وفيما حولنا من كائنات :

« الوصول الى حقائق الاشياء ، هو انتاج الحق بالحرية ، والوقوع عند الغاية ولا كتناء الحقيقة التي تعمل أبوابها أبداً دوننا يجب ان نبحث وان نطيل البحث وان نتصل بالاشياء المحيطة بنا ، فاذا اتصلنا بالاشياء من طريق روحنا كشف لنا عما فيها من سر واستبنا حقائق الحقيقة . وعندئذ نشعر بها تمام الشعور ، ونحس هذه الاشارة الناجزة في الكون كله والتي لا تراها بغير عين الروح

والوصول الى الحقيقة وسيلته الشعر ، فالشعر هو جواب الروح الخالدة لنداء الحق الكامن في كل مكان ، والشاعر هو الذي يرى الحقيقة ويبينها ، الحقيقة كما هي لا يزينها الوهم والحقيقة من حيث هي جمال مطلق » (٢)

وليس من مطالب الشعر أن يكون فلسفة ولكنه لن يوفي معانيه الا اذا وجد وجهة الفلسفة . وأعذب الشعر ما اتصل بالحياة ، وأوصلنا إليها من طريق فهمها وادراكها ، ولا

(١) فصل من كتاب Realisation in Love سعد هانا

(٢) محاضرة بالقاهرة بمسرح الحديقة سنة ١٩٢٦

يكون الشعر متعة إلاّ اذا أظهرنا على خلود الروح من طريق الوصف والخيال

والشعر والفلسفة لا يتناقضان ولكنهما يتعاونان ، ولن يكون شاعراً المتشائم المهزوم ولا الثائر المحطم الاعصاب ، لان الشعر هو ترديد لنغمات قلب كبير مفعم بالايمان والحب والنور والهدوء والسلام ، ولن يكون شاعراً هذا المقعد المرتاب في الروح العليا التي تسيّر الكائنات ، ولن يكون شاعراً هذا الزاهد ، لان الزاهد هدو الحياة ، وكيف يشعر بالحياة هدو لها يناقضها ويعلن سخطه على منشئها . ان الذي لا يرى في الحياة جمالاً لن يكون شاعراً ، وان الذي لا يبحث عن الجمال لن يكون شاعراً ، وان الذي لا يدرك كنه الروح لن يكون شاعراً . يجب ان يفهم الشاعر الحياة أولاً ، ويجب ان يخلق من بعضها نظاماً منسجماً ومن شرها خيراً ، ويرقب الأبد من خلال الفناء ، ويرضى من قوارعها بما تتركه هذه القوارع في النفس من تهذيب واصلاح . هذا هو الشاعر او هذا هو تاجور الشاعر

وأما الفيلسوف فهو الذي يستطيع ان يعبر عن آراء الناس وعقائدهم ، والذي يكشف المعاني المنسجمة في الاشياء التي تحيط بالحياة ، وينفذ الى ما وراء الاشياء تاركاً الشاعر ادراك الجمال والفهم من مظاهر هذه الاشياء ، هو يبحث عن الحياة داخل الاشياء وواجداً الحقيقة في كل شيء ، داعياً الى الوحدة الروحية بين الكائنات جميعاً . والفن في نظر تاجور:

«هو شكل يسير بالحياة البصرية على ما تبيح فيها الآنية والمادية ، وهو يفسيها تقصيا وصفائرها ، ويخربها من قيود الاوضاع والعرف ، والفنان هو الذي يطلق في نفوسنا جمال الروح ، ويتيح فيها ادراك الحقائق (١)

هذه بعض مقوّمات الثقافة الادبية والفنية التي أعلنها تاجور للغرب ، وهو وان كان عالمياً في معانيه ومقاصده ، إلاّ أن صورة البيئة الهندية وصورة الشرق تلازمان شعره ولا تفارقان قلمه أبداً ، فالنهر والربيع وشجرة المانجو وزهرة التوتر والحناء وأوراق الموز وحقول الأرز والمانجروس ، والقارة ذات انقاب السف ، والألوان الزاهية ، والألحان ذات الأثر الباهت — جميع هذه الصور الشرقية تدور في شعر تاجور العالمي فتكسبه حلاوة وروعة من روح الشرق الخالد . في صور تدور في شعره تبحث عن وحدة العالم في فلسفة وإلهام صادق يوحي ادراك ما وراء العالم من الوعي الداخلي ، وايراز المضمر من سر والكامن في اطار يلهم المعنى تلقائياً

وتاجور فيلسوف يدعو الى الاتصال بالعالم ، وهو بهذه الدعوة يهدم خرافات الهنود التي تدعوهم الى التقشف والانصراف الى النفس — ولقد وجد في الرحلات المتواصلة سبيلاً الى هذا الاتصال فرحل الى أوربا وأميركا وطاف ممالك الارض غير مرة وقابل الملوك والقادة

(١) محاضرات تاجور في كتابه سادهنا

والزعماء ، (١) وأعلن لهم رأيه في صور مختلفة — وعاد الى بلاده ، وفي نفسه حسرة باكية على المدنية الغربية ، مدنية الانانية والاثرة ، مدنية الفتك واذلال الانسانية واحتقار كرامة الروح ، مدنية الجشع والجوع التي قال عنها يوم عاد «انها حقيقاً مدنية ترقص فوق البركان»

وجد تاجور عند ما عاد من اوربا سنة ١٩٢١ ان عليه مهمة الرجل الاجتماعي المصلح وان ما فكر فيه شاعراً وفيلسوفاً وحكيماً يجب ان يعالج من طريق العمل الاجتماعي ، وان رسالته للانسانية يجب ان تؤدى في وجه جديد ، من طريق التعليم والاصلاح والدعوة والتبشير للمبادىء الحقة ، انقاذاً للبشرية ان تنهار ، فجدد مدرسته في مدينة بلبور التي كان قد أنشأها للاطفال في سنة ١٩٠١ وغير اسمها من «شانتي نكتان» اي « مرفأ السلام » الى معهد عالمي سماه (فسفا بهاراتي) ودعا فيه الى تعاليم جامعة غير ناظر الى جنس او لغة او دين أو لون . وأعلن يومئذٍ

« بان يكون مهم هذا الجيل هو محو الاثرة من نفوس بنيه ، وان يجاهد الناس في سبيل تغليب الخير في نواطن الانسان وان يحاربوا الشر ويدفعوا به عن شعورهم وكرامتهم وان تسعى قوارن الجنس واللون وان تسود العالم الوحدة الروحية »

هذه هي المعاني السامية التي بشر بها تاجور ، ثم أنذر الغرب في محاضرات أذاعها عليه في اوربا واميركا

« إني مشفق على كنوز هذه المدنية الغربية . ومن الواجب انقاذها مما فيه من أثرة وأنانية ، يجب ان تسودها الروح ، والا يندفع انسياب في عصبية مهلكة وراء الشائد والآراء الهادمة »

ويخشى تاجور ان يصاب الشرق « بداء الغرب» فيصاب في أعز ما أدّخر من ميراث روحي ولقد بكى تاجور عند ما وصل اليه ان اليابان ضربت الصين بالقنابل وأذاع في أكتوبر سنة ١٩٣٧ رسالة لاسلكية استنكر فيها ان تقوم أمة من الشرق تجتاح أمة شقيقة لها ، وطلب الى ساسة اليابان أن يغلبوا روح الشرق الكريم ، وألاّ يندفعوا وراء داء الغرب الوبيل

وكتب رسالة الى شاعر اليابان « يوني ناجوتشي » قال له فيها : —

«إن الشرق فجر الضمير الانساني ، فيأبى في اليوم ان تضرب اليابان المدن البريئة في الصين وان تقتل الاطفال والشيوخ في الاشجار والحيوان بالقنابل »

على ان رحلات تاجور الى اليابان لم تكن السبب في تعريفه للغرب . فلقد سبقته اليه شهرته ، فمنحته مجمع ستوكهلم جائزة نوبل في الآداب في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٣ ، وقرر ان شعره يشمل جميع مطامح النفس . وشهد تاجور مؤتمر الاديان سنة ١٩١٢ واحتفل بعيده الخمسيني سنة

(١) زار تاجور انجلترا وفرنسا سنة ١٩١٢ وحضر مؤتمر الاديان في باريس في هذه السنة ثم زار أوروبا سنة ١٩٢١ وطاف بها ثم زار اليابان واميركا وروسيا السوفيتية والصين وجنوب افريقية والعراق وكينيا وآخر زيارة لأوروبا كانت سنة ١٩٢٦ حيث زار تركيا الحديثة وإيطاليا الفاشية وزار مصر في آخر زيارة له

١٩١٢ ، وترجمت كتبه بعد ذلك « القربان الشعري » الى جميع اللغات. وأنعم عليه ملك الانكليز في سنة ١٩١٥ بلقب « سير » ولكن تاجور غضب في سنة ١٩١٩ عندما شعر بان الانكليز قد أساءوا الى أهل بنجاب في مأساة « امرتسار » فاحتج لدى الحاكم ، واعتذر عن قبول هذا اللقب . وأظهر عطفه على غاندي وان كان لا يتفق وإياه في سياسته وقال :—

« إن الشرق يأبى ان يؤخذ بالعنف »

ولقد سألت تاجور يوم زار مصر في سنة ١٩٢٦ بعد ما طاف ممالك اوربا ، عما لفت نظره فيها فقال

« أنا أخشى ان تنهار هذه المدنية ، وفيها ذخر قتال لا يعوض ، إن أوروبا تعاني تيارين قويين وهما تيار الشيوعية وتيار الفاشستية ، وكلاهما تيار عنيف جارف . وأنا لا أؤيد العنف في اي مظهر من مظاهره »

ولقد أثرت في نفسي زيارة تاجور ، وأيقنت عندما سمعت صوته في نبرات متقطعة هادئة عذبة منسجمة تسري الى أذني ، فتأخذني بجمال عذب يخلق في النفس فيضاً من الأحلام، أيقنت ان هذا الصوت انما هو ترديد نفس موسيقية بفطرتها ، وآمنت بما كنت قد قرأته عنهُ من قبل، من ان تاجور موسيقي يلحن بنفسه اشعاره وصلواته، وانهُ لحن أكثر من ثلاثة آلاف أغنية من أغانيه . وأدركت يومئذٍ من جلال روحهِ وسهولتها وبراءتها حبه وشغفه بالاطفال ، ووجدت في جاذبيته ما يدني الارواح البريئة النقية ، وان من أسرار عظمة هذا الرجل الحكيم البسامة وروح الطفولة الثائمة في خلقه وتعاليمه

ولقد احتفلت به مصر يومئذٍ ممثلة في مليكها الراحل الكريم وفي زعمائها وقادة الفكر فيها، وأذكر انهُ عند ما تشرف بمقابلة المغفور له الملك فؤاد طلب الى جلالته ان يُسهدي الى جامعته بالهند الكتب الأدبية التي صدرت بالعربية بمصر التي تعين الهند على التفاهم مع الروح الاسلامي الصحيح . وقال : لقد بقيت هند من الروح الاسلامي ما لم تبلغه امة اسلامية اخرى

ولم يكن تاجور الى أكسفورد سنة ١٩٣٢ من مؤيدي لهائها غاندي في آرائه السياسية ، ولكنهُ انضم الى غاندي عند ما صام صومه الطويل ، داعياً الشعب الهندي أن يلغي الفوارق بينه وبين الأنجاس ، وقال في مثل تاجور :

« إن إزالة الفوارق وربطت بين البشر الى بعضهم على اساس يدعو اليه عمل ديني »

ولتاجور نفس لا تصيبها الشيخوخة ، فهو دائم مقبل على الحياة متذوق جمالها ، مبتهج بها ، ويقول :—

« إننا لن نفهم الحياة إلا اذا فرحنا بها ، فالفرح هو سر المعرفة بالاشياء، والبهجة هذه روحي لا تغضب والفنون تعيننا على هذا الفهم دائماً »

فلما بلغ تاجور الثامنة والسبعين شغف بالرسم شغفاً كبيراً ، وأخذ يخرج ما كان يجول

بنفسه من صور ومعانٍ ومشاعر والهامات على اللوحة ، متخذاً الالوان والرسوم أداة لتعبيره . وقد أقيمت لصوره معارض في لندن سنة ١٩٣٨ ، فكانت قصائد من الشعر ملونة في الصور ، ثم عرضت صوره في برمنجهام وموسكو وبرلين وميونخ وباريس ونيويورك . وألقى تاجور في اميركا محاضرات ، نقد فيها المدنية الاميركية ، وبعث الى الاميركيين صورة من فكرة الشرق في معنى الوطنية وقال :—

« إن القومية يجب ان تكون عالية وألا يندفع الشباب بأعصابه الملتهبة وراء دعوات الزعماء والقادة ، فهذه الحماسة الكاذبة انما هي عمل ليس من الخير في شيء ، فهي اندفاع عنيف سيؤدي الى اراقة الدماء والدمار ويقول : « إن التعاون الدولي لا يكون بعقد المعاهدات وانما يكون بالتقارب الروحي والتفاهم بين الشعوب »(١)

وعند ما بلغ تاجور الثمانين منحته جامعة اكسفورد لقب دكتور في الآداب ، وكانت السر موريس جوبر كبير قضاة الهند أن ينوب عنها ويقدم لتاجور براءة اللقب في قريته تقديراً لآدابه وتعاليمه . وظلت روح تاجور عالية سامية في اجوائها على الرغم مما اصابه من ضعف في أعصابه ومرض لازمه طويلاً . ولبث قوي الروح حتى أطفأ سراجه في ٧ اغسطس ١٩٤١ ليتير مكانه المقدس في سماء الابدية الخالدة ، فلقي ربه غاية ما كان يصبو اليه في حياته شاعراً وفيلسوفاً وفناناً . وليس الموت في نظر تاجور الا الاتصال بالله والفرح به ، وليس هو انفصالاً مقطوعاً وانما هو لون آخر من ألوان بقاء الروح وخلودها ، أو وجه آخر لهذه الحياة البشرية ، وهو الوجه الخيّر الفاضل ، وتاجور يقول لرفاقه في المدرسة : —

« لا تبكوا أيها الرفاق ، ولا تحزنوا الموت فلكم فيه مسرة ورضا ، ولكم فيه الوصول الى الحق المطلق ولكم فيه مصير مرغوب موصول بالحياة الابدية — لقد دعينا الى الحياة فلبينا وبورك فينا في حياتنا ، وسندعى الى الحياة مرة أخرى على ضفاف الابدية ، حيث نمس حياتنا في لطف الله ، ونشعر بوجوده في يدي الخفية للطافة . انكم أيها الرفاق كالطفل يكن حينما تترع أمه قدميها الآيمن من قبل ، مع أنها لا تثبت ان تناوله الثدي الايسر الذي يجد فيه المرأة والسلوى » (٢)

ولتاجور في القربان أنشودة يقول فيها :

« لقد أجاز لي صاحب الامر الذهاب

فودّعوني يا رفاقي

اني محيّيكم جميعاً ، ثم لاحق في سبيل من سبق

وهذا مفتاح بابي أردّه ،

وها كم داري قد زلتُ عن حقي فيها

واني لا أسألكم غيرَ وداعٍ طيب »

فوداعاً يا تاجور ، يا من ثويت في ضمير الحياة ، بعد ان ملأت كأسها شعراً وحكمة وحبة وفلسفة ، وقدمت أشهى قطاف عمرك ، قرباناً للانسانية مبذولاً

(١) كتاب القومية لتاجور (٢) محاضرات تاجور

نقل الطاقة الكهربية

أمواجاً في الاثير

والتقاطها واستعمالها بغير أسلاك

توالت الحجائب اللاسلكية بعضها يقفو بعضاً بسرعة تحيّر الألباب . وليست اذاعة الانباء والخطب والموسيقى الاّ ناحية واحدة من نواحيها. ومن عهد قريب قال لورد بيشر بروك ان بريطانيا تعتمد على نظام خاصّ دقيق من الاشارات اللاسلكية ، لتعيين مواقع الطائرات المغيرة قبل وصولها الى الساحل . فتنبه هيئات الدفاع الجوّي الى التأهب لملاقاتها وتلافي خطرها . وقد سبق للاميركيين استعمال جهاز من هذا القبيل في بعض طائراتهم ، لمعرفة ارتفاع الطائرة عن الارض في ليل بهيم او جوّ عاصف منجهّم . واستعملت الاشعة التي تحت الأحمر للرؤية في الظلام . فهي تنبعث من جهاز مرسل خفيةً في الفضاء لأنها لا ترى بالعين ، فاذا انعكست عن جسم ما طبقت أساليب التلفزة في تحويل الاشعة المنعكسة صورة تظهر على ستار ، فيرى الجسم عن بعد ولو كان الظلام يلفّهُ . وقد اطلق على هذا الضرب من التلفزة وصف التلفزة الليلية . وقد وصف السر الكسندر وسل في مجلة نايتشر العلمية من سنوات التجربة التي طبّق فيها هذا المبدأ فقال و « جرب المستر بايرد Baird جهازه امامي وامام المستر كروكس فجلس احدنا في الحجرة التي فيها الجهاز المرسل ومعه احد ساعدي المستر بايرد وكانت الحجرة مظلمة . وجلست أنا في الحجرة التي فيها الجهاز المستقبل وقد كانت في طبقة من البناء غير الطبقة التي فيها الحجرة الاولى . فرأينا على لوح الجهاز المستقبل رأس المساعد وجميع حركاته وسكناته . وكانت الصور التي رأيناها واضحة الوضوح كله. فاستعمال الاشعة التي تحت الأحمر في التلفاز يمكننا من ان نرى ما يدور تحت ستار الظلام عن بعد وهذا لم يتحقق قبلاً من ما اعلم » . وبعد ذلك طُبّق هذا المبدأ على مشاهدة أجسام بعيدة كسيّارة تسير في الظلام وقد أطفئت أنوارها ، او جبل من جبال الجد في البحر يحجبه ضباب كثيف

ولكن هذه الغرائب جميعاً ، على غرابتها وما لها من تأثير عظيم في العمران ، تتضاءل امام تباشير استنباط لاسلكي قديم جديد ، غرضه نقل الطاقة الكهربية لاسلكيًا من محطات رئيسية منتشرة على وجه الارض حيث يكون توليد الطاقة الكهربية أرخص ما يكون نقلة

وأقل ما يكون جهداً فتلتقط أمواجها أجهزة مستقبلة صنعت لهذه خاصة، وتحول طاقة محركة تستعمل في قضاء مآرب الانسان في الصناعة وما أشبه. وإذا تعذر تطبيق هذه المبدأ فقد تستغني المصانع حينئذٍ من مولدات الطاقة الكهربية والسيارات عن محركات الاحتراق الداخلي، والمصابيح الكهربية عن الاسلاك التي تصلها بمستودع الطاقة الكهربية العمومي، اذ يصح في الوسع حينئذٍ ان تؤخذ الطاقة الكهربية من الفضاء بعد إذاعتها من المحطات الخاصة أمواجاً موجّهة على الغالب

قلنا ان نقل الطاقة الكهربية نقلاً يُستغنى فيه عن اسلاك مبدأ قديم جديد ربما تحاسب اللاسلكي الذي استخرج كلارك مكسويل معادلاته الرياضية الاساسية وأثبت هرتز مبدأه بتجربة وأفرغه مركوني ومن عاصره وتلاه في هذا القالب، الذي يخبر الينا كل ساعة من ساعات النهار والليل أصواتاً وألغاماً من أقصى أقاصي الأرض، صوى ضرب من نقل الطاقة الكهربية. ولكن المقصود على وجه خاص بنقل الطاقة الكهربية في هذا المقال، انما هو نقل الطاقة التي تصلح لانارة المصابيح وتحريك الآلات وما أشبه. ولعل نقولا تسلا مخترع المستبط الأميركي الشرقي الاصل من أوائل الذين جرّبوا تحقيق هذا النقل. وقد وجدنا في مقتطف دسمبر ١٨٩١ طرفاً من بحوثه نقلنا: «تمكن الاستاذ نقولا تسلا من تنويع الكهربائية وجعلها تخترق الجدران وتنير المصابيح وهي غير متصلة بها ولا يبعد أننا نتمكن عن قريب من ارسال الكهربائية من مكان الى آخر بدون أسلاك وبدون موصلات». وفي مقتطف ابريل ١٨٩٢ قلنا: «ومن رأي الاستاذ تسلا انه يمكن توليد هذه الكهربائية فوق البيوت والمدن حتى اذا وجد فيها آنية زجاجية مفرغة من أكثر هوائها أنارت كما تنير المصابيح الكهربائية. فاذا حققت الأماني التي تعلق على هذا الرجل وغيره من الباحثين في هذا الموضوع انتقل العالم من حال الى حال في جميع أعمالهم وشؤونهم الصناعية والصحية والاجتماعية . . . ويعيش الانسان في جوٍّ مشحونٍ بالكهربائية فيستخدم ما شاء منها بلا تعب ولا مشقة»

كان ذلك قبل نصف قرنٍ من الزمان!

كان تسلا كسائر مكتشفي الكهربائية وصنّاعها يبني بناءه بالمادة وطبيعة الكهربائية، وقصد تمكين مركوني من استخدام أمواج هرتز الكهربية في نقل الاشارات التلغرافية، وقبلنا تمكن جمهور العلماء والباحثين من أمثال لودج ومركوني وبرانلي وفلمنغ وده فورست وبارد وغيرهم من استنباط الأنبوب المقرع واتقان استعماله اساساً للمخابرات التلغرافية اللاسلكية ونقل الصور الضوئية والمرئيات ذاتها. أما وقد تحقق كل هذا فهل يحقق كذلك ما أشار اليه تسلا قبل نصف قرن من الزمان؟

في شهر يونيو سنة ١٩٢٧ أثبت الدكتور فيلبس توماس أحد المهندسين المتقطعين للبحث الكهربي في شركة وستنهوس الاميركية في خطبة خطبها امام جماعة من المهندسين الاميركيين الكهربيين انهُ حقق بالتجريب مبدأ نقل الطاقة الكهربية بغير اتصال سلكي ، إذ أخذ بيده مصباحاً كهربيًّا غير متصل بسلكٍ ما ، ولكنهُ متصل بقضيب من النحاس طوله نحو متر والقضيب غير متصل بشيء ، ووقف المحاضر على مسافة مترين من أنبوب مفرغ فلما حركت الآلة المتصلة بالأنبوب المفرغ خرجت منهُ مجاري الطاقة الكهربية ، فالتقطها القضيب النحاسي بغير اتصال وأوصلها الى المصباح فأضاءَ

وروت مجلة العلم العام الأميركية في السنة نفسها ان تسلا الشيخ الفنيَّ كان مكبًّا على وضع تصميم لبرج كهربي ضخم يبنى على مقربة من شلالات نياغرا فتولد الطاقة الكهربية هناك بفعل الماء المنحدر بنفقة يسيرة ، وتنطلق من البرج على الوجه الذي وصفهُ تسلاَّ وكان شيلتمز — وهو من أبرع الكهربيين الاميركيين في هذا العصر — موقناً عند وفاتهِ من خمس عشر سنة انهُ لابدَّ ان يجيء عصر يصبح فيهِ نقل الطاقة الكهربية لاسلكيًّا من الأمور المألوفة

***

وكان الرأي ان طبقات الهواء العليا هي أصلح موصل لأمواج الطاقة الكهربية لأن الهواء في هذه الطبقات لطيفٌ فلا تفقد الأمواج كثيراً من قوتها في اختراقهِ كما يحدث عندما تخترق الهواء قرب سطح الارض وهذا القول هو الباعث على اقتراح المهندس الانكليزي هيو بلرد ان تبنى أبراجٌ ضخمة على قنن الجبال الشاهقة كقنة جبل ما كنلي في الاسكا وجبل هوتني في كاليفورنيا وصون بلان في جبال الألب الفرنسية وغيرها في مختلف البلدان فتذاع منها الطاقة الكهربية أمواجاً خفية فيلتقطها المرء متى شاء . واقترح بيرد كذلك أن يبنى رجلان من هذا القبيل أحدهما على مقربة من القطب الشمالي والآخر على مقربة من القطب الجنوبي لأن طبقة الهواء اللطيف هناك أقرب الى سطح الارض منها في المناطق الاستوائية والمعتدلة. وقد أثبتت رحلات الروَّاد الى الأصقاع المتجمدة ان في أراضيها كثيراً من الفحم وبعض النفط ولا تستطاع الافادة منهما لأن استخراج الفحم والنفط ونقلهما الى البلدان العامرة كثير النفقات فيحسن ان تنشأ هناك منشآت لتوليد الطاقة الكهربية باستعمال الفحم والنفط وقوداً . ولا يخفى ان المنطقة التي تحفُّ بالقطب الجنوبي قارة كبيرة يغطيها الجمد فانشاء المصانع لتوليد الطاقة والابراج لاذاعتها أمواجاً في الفضاء مستطاع على ما فيه من مشقة . ولكن المنطقة حول القطب الشمالي ماء تعلوه طبقة من الجمد الكثيف ولذلك يغلب الظن أن اقتراح بلرد كلّ يتعلق بأقرب اليابسة الى منطقة القطب الشمالي لا المنطقة التي تحفُّ بالقطب الشمالي نفسهِ

ويذهب الدكتور توماس صاحب تجربة المصباح — التي تقدم ذكرها — الى أن الاعتماد في نقل الطاقة الكهربية نقلاً لاسلكيًّا يجب أن يكون على الأمواج الكهربية القصيرة أي العالية التذبذب وغايته أن يتمكن من استنباط آلة تولد أمواجاً لاسلكية قصيرة جداً ثم يرجعها في شعاعة — أو أكثر — سمتها أربع بوصات بعد ما يجمعها ويعكسها من مرآة معدنية مقعرة على نحو ما يفعل الآن في « الراديو الموجّه » . فاذا تم له ذلك أنشأ على سبيل التجريب العملي في بلدة ما بضعة أبراج ترسل تيارات أمواجها في جميع الاتجاهات فتتقاطع التيارات ويصبح الجو حافلاً بالطاقة الكهربية فتستطيع ربة البيت أن تستعمل جهازاً يقابل القضيب النحاسي الذي استعمله الدكتور توماس في تجربته ليستمد به الطاقة من الفضاء فتطبخ بها أو تكوي بها أو تنير بها

كل هذا من خمس عشرة سنة

أما الآن فانظر ما يقوله الدكتور لولست كالدويل مخترع محطة « الراديو البوم »

يبلو الآن من المحتمل نقل مقادير كبيرة من الطاقة الكهربية في الهواء بغير اسلاك وبواسطة تيارات موجهة من الأمواج الكهربية . وقد اخترعت أساليب جديدة وصنعت أنابيب جديدة — كالبوماترون والكلايسترون — تمكننا من نقل طاقة كهربية في الفضاء قوتها قوة حصان واحد

والمتفائلون بهذا النوع من التقدم الكهربي يتصورون محطة توليد الطاقة الكهربية قائمة قرب تلال او أمام مدخل منجم ما، حيث تكون الطاقة اللازمة لتوليد الكهربية رخيصة ، وهذه المحطة الرئيسية تتصل بالمحطات المتفرعة عليها في مواقع شتى بشعاعات من الأمواج الكهربية . فتلتقط المحطات الفرعية الطاقة من الهواء وتوزعها على المدن والقرى في منطقتها (لم يقل الكاتب هل يكون التوزيع من المحطات الفرعية بأسلاك او بغير أسلاك) ومن اغرب الآراء التي اوردت في هذا الصدد رأي العالم دايفس الذي كان مديراً لمصنع وستنهوس في بتسبرج الشرقية . قال إنهُ لا يستغرب ان يحل يوم توجّه فيه تيارات من الطاقة الكهربية بين مدينتي نيويورك وبتسبرج وتأخذ منها القاطرات وسائر ما تحتاج اليه من الطاقة اللازمة لتحريكها !

ومهما يكن من امر فإننا لم نتمكن حتى الآن من نقل مقادير كبيرة من الطاقة اللاسلكية. ولكن التجارب التي جربت خلال السنوات الاخيرة بأشعة الامواج القصيرة أثبتت انه في الوسع نقل قدر من الطاقة الكهربية قوتهُ ربع حصان مسافة مائتي قدم الى ثلاثمائة قدم تتقاطعها في الطرف الآخر واستعمالها في تحريك محرك صغير لانارة مصباح او تحريك آلات صغيرة

وفي أوائل سنة ١٩٤١ اجتمع فريق من العلماء الأميركيين ومهندسي شركة وستنهوس وجربوا التجارب بجهاز جديد يدعى « كليسترون » Klystron وهو أنبوب جديد يولد طاقة كهربية في شكل أمواج قصيرة . ولكي يثبتوا ان « الكليسترون » يطلق الطاقة في الفضاء في شكل صالح للاستعمال ، طلب الى كل من حضر الاجتماع ان يرفع باحدى يديه مصباحاً كهربيًا كالمصباح الذي يضاء ببطرية جافة ونستعمله في الظلام . وكانت هذه المصابيح غير متصلة ببطرية ما ولكن ربطت بها أسلاك هوائية قصيرة . فلما أطلق جهاز الكليسترون الطاقة المولدة فيه ، الموجهة في شعاع مخروطي الشكل ، أنارت جميع المصابيح كأنها كانت متصلة بسلك كهربي او ببطرية

ومن غرائب هذا الجهاز الجديد — الكليسترون — انهُ يصلح لأغراض كهربية شتى . فهو يولد أشعة سينية قوية ويصلح لتوليد حرارة في أجسام مرضى يجديهم العلاج بالحرارة الكهربية . ومن أهميته الحربية انهُ يعين المهندسين الكهربيين على زيادة عدد الرسائل التلفونية المرسلة بسلك واحد . ومن وجوه استعماله ان يكون معواناً للملاح الجوي إذ يستطيع ان يتبين بهذا الجهاز ارتفاع الطائرة عن الأرض او في منزلة ضوء كشاف — ولكنهُ ضوء لا يرى — يستطلع السماوات ويكشف طائرات الأعداء فيها . وهذا الاستعمال هو اساس النظام المتبع في بريطانيا لكشف الطائرة المغيرة قبل وصولها

***

صنع الكليسترون أولاً في معامل جامعة ستانفورد بكاليفورنيا من نحو سنتين وقد تمكن المهندسون الكهربيون من تصغير حجمهِ بغير ان تنقص الطاقة الكهربية التي يولدها . وهو يطلق تيارات من الطاقة الكهربية بتغيرٍ الكهربيات المتسابقة في تيار كهربي ، ثم جمعها طوائف طوائف وتحويل طاقتها الى دبذبات عالية التردد أو أمواج قصيرة ، هي أقصر عشرة اضعاف من أقصر امواج الراديو المستعملة الآن

وقد كان الاستاذ هانسن الذي صنع هذا الجهاز معنيًا بصنع جهاز لقرصه الذرة عندما عرضت عليه فكرة الكليسترون من باحثين عميقين من أسرة « كلستر » فتعاون معهما باذلاً علمهُ وخبرته . ودعي الجهاز الاول الذي صنع « روميارون » نسبة الى رقصة « الروبا » لأن الامواج المتولدة تتردد تردداً مزدوجاً بين قطبين قبل انطلاقها في الجو ، وحركتها المترددة تشبه حركة سيقان الراقصين رقصة « الروبا »

وغني عن البيان ان كل محطة اذاعة لاسلكية هي في الواقع محطة تنشر في الجو طاقة كهربية والامواج التي تحمل في عالمنا امواج الصوت من المتحدثين والمنشدين انما هي امواج طاقة

كهربية تؤثر في الاجهزة اللاقطة حيث تتحول الأمواج اللاسلكية امواج صوت مسموع. ولكن مقدار ما يتلقاه الجهاز اللاقط من الطاقة يسير جداً ولاسيما اذا كانت المسافة بين المحطة المذيعة والجهاز اللاقط مسافة شاسعة. ولكن اذا كانت قوة المحطة المذيعة خمسين كيلو وط وكان احد الناس في نطاق لا يبعد ميلاً عن المحطة فني وسعه ان يستمد من امواجها المذاعة طاقة كهربية لا بأس بها. وقد ثبت بالامتحان ان رفع اسلاك هوائية على سطوح المنازل في هذا النطاق وتوصيلها بأسلاك الى المصابيح، يمكن اصحاب البيوت القريبة من محطة «الراديو» القوية من اضاءة مصابيحهم بما تلتقطه الاسلاك الهوائية من طاقة مشعة في الفضاء. ولكن مقدار التيار يكون متغيراً، ولذلك فضوء المصباح يقوى ويضعف وفقاً لقوة التيار وضعفه

وكل هذا يدل على أن يوم نقل الطاقة بغير سلك ليس ببعيد وقد نشهد يوماً ما الطاقة الكهربية المولَّدة من شلال نياغرا منقولة على أجنحة الأثير الى حيث تستعمل، بدلاً من نقلها بأسلاك من نحاس

***

وقد يذكر بعض القراء ان مركوني جرَّب في ٢٧ مارس سنة ١٩٣٠ تجربة استوقفت أنظار العالم فحسبها الناس تحقيقاً لنقل الطاقة الكهربية مسافة ألوف من الأميال. ذلك بأنهُ ضغط زرًّا في يخته «الترا» الراسي في مياه جنوى فأضاء الفين وخمسمائة مصباح كهربي في معرض نظمته مدينة سدني الاسترالية. وقد ذهب الخيال ببعض الصحافيين حينئذ الى القول بأن مركوني استنبط استنباطاً جديداً يمكنهُ من ارسال الطاقة الكهربية الوفاً من الأميال فتنير المصابيح وتسير المركبات الكهربية وتحرك الآلات وما أشبه

والواقع — وقد نشرنا ذلك في المقتطف في حينه — ان عمل مركوني لم يكن من قبيل نقل الطاقة الكهربية الذي جعلناه مدار هذا المقال، بل كان تدبيراً بارعاً لتطبيق مبدإ معروف. ذلك بأن المصابيح في سدني، كانت معدة للاضاءة اذا أدير مفتاح واحد معين. واضاءتها تكون بطاقة كهربية تمدها بأسلاك عادية. وكان المفتاح متصلاً بجهاز خاص يؤثر بتيار كهربي أو أمواج لاسلكية من قوة معينة أو طول معين. وكل ما فعله مركوني عند ضغط الزرّ ان أرسل أمواجاً لاسلكية متفق عليها فأثرت في الجهاز المعد للتأثر بها فتحرك المفتاح فأضيئت المصابيح. وهذا يختلف كل الاختلاف عن اضاءتها بغير ان تكون متصلة بأسلاك تمدها بالطاقة اللازمة

علم النفس (١)

وتهذيب الافراد والشعوب

للدكتور ابرهيم ناجي

سيداتي سادتي : لا شكَّ ان علم النفس (السيكولوجيا) قد بلغ درجة عالية من الكمال حتى صار علماً قائماً بذاته . وحتى تململ في كل شيء في هذا الوجود . وحتى امتزج بالعلوم الأخرى واندمج فيها فصار يشقُّ على الانسان ان يفصل أحد هذه العلوم عن الآخر . ولا بدَّ لدارس علم النفس ان يكون ملمًّا بالفلسفة . ولا بدَّ ان يكون ملمًّا بعلم وظائف الاعضاء والتشريح . وعندما يأخذ في درس المذاهب المتعددة ويتعرض للمدارس المتنوعة ، يجد أنهُ لا بدَّ لهُ من الالمام بالكيمياء والطبيعة ، ثم يجد انهُ عندما يتصدى لدراسة علم النفس الاجتماعي ، لا بدَّ له ان يلم بالمؤثرات الجغرافية ، ثم عندما يأخذ في استعراض تطور العقل الانساني استعراضاً تاريخيًّا يجب ان يلم بحوادث التاريخ الجسام ... وهكذا أيها السادة ان الذي يأخذ على عاتقه دراسة علم النفس دراسة كاملة ، يجد نفسه بعد قليل دائرة معارف تامة ما دام يريد ان يحيط بكل ما يتعلق بالنفس الانسانية ويفهم أسرارها

أضرب مثلاً لحضراتكم — على سبيل التذكرة — أسماء بعض المراجع التي استشرتها في محاضرتي الليلة : من أهم الكتب التي اطلعت عليها كتاب « السيكولوجيا والمسائل الحديثة » وهو كتاب اشترك في تأليفه جماعة من العلماء جميعهم أطباء . وطابع الكتاب يعتذر اعتذاراً لطيفاً في مقدمته ، إذ يقول إنهُ من العجيب ان يجتمع أطباء ليكتبوا في التعليم والسياسة والفن ... وليس في الكتاب شيء طبي بتاتاً ... ولقد راعتني مقالة الدكتور اماتويل ميلر عن الفن . فان أكبر فنان لا يستطيع ان يجاري هذا الطبيب في صحة فهمه ، وأكبر أديب يقف عند أسلوبه حائراً ... وقد تكلم الدكتور فلوجل عن الزواج في هذا الكتاب ، فطرقهُ من أبواب اجتماعية بحتة ولم يتعرض له من الناحية الطبية إلا قليلاً

وتناول الدكتور كريترن ميلر مسألة التعليم ، فتناولها تناولاً يعجز أكبر المربين . وقد تناول كل شيء يصح ان يشمله البحث ، حتى الكلام عن مصر لم يفتهُ

(١) محاضرة ألقيت في جمعية النساء المصرية

ومن الكتب الهامة التي أفادتني كثيراً كتاب اولاف ستابلدون وعنوانه « الفلسفة والحياة » . وهو عرض عجيب لعلم النفس والفلسفة والاجتماع والاخلاق ، والمؤلف ينتقل بالقارىء من هذا العلم الى ذاك انتقالاً يعزّ ما قلته لحضراتكم أولاً ، وهو ان العلوم متشابكة متصلة الحلقات

سادتي : ما هو علم النفس ؟ تعريفه الصحيح « انه كيفية السلوك الانساني » . . . . Study of human behaviour . ومعنى هذا ان نعرف كيف نفكر وكيف نحب وكيف نكره ، وبفعل أي الدوافع نتحرك لنعمل ، وهل نحن آليون نتحرك تحرك (الزنبرك) أم وراء آليتنا قوة محركة وروح خفية ؟ ثم أهم من كل ذلك ، هل نحن أبناء الوسط أم الوسط نحن الذين نصنعه ؟ إن للوسط The environment منزلة عظيمة الشأن . واختلاف الآراء في أي الشيئين أصوب ، وضع الفرد كخالق للوسط ، او الوسط كمكون للفرد والغ به ما بلغ اليوم — إن اختلاف الآراء في هذه النقطة هو سرّ هذا النضال القائم اليوم في العالم . سرّ الحروب والويلات والاهوال . فان الذين يقومون بالحركات الاجتماعية التاريخية ويشقون للناس الطرق ويرصفون السبل ، ويبشرون المذاهب ، لم يجيئوا الى الكون اعتباطاً ، ولم يتقدموا الصفوف غرضاً او مصادفةً . قد يحدث ان الضروورات أوجدتهم ، او الضنك الاجتماعي هو الذي قذف بهم الى الأمام ، ولكن يقول « لورد ولف » في كتابه « بعد الطوفان » « — الحوادث الجسام التي تحفز الشعوب الى التفكير ، والويل للشعوب حين تفكر — لانها في نظامها العادي قليلاً ما تلجأ الى الفكر ... »

عندما تفكر الشعوب ، او يفكر أحد الذين اضطرتهم الحوادث الجسام للتفكير ينتمي في الحال الى إحدى المدرستين ، اللتين لا ثالث لهما . . . المدرسة الفردية ، او المدرسة الاجتماعية . المدرسة الأولى تدين بأن الفرد وحدة قائمة بذاتها ، كحبات الرمل ، كل حبة لها كيانها . . . ويتكوّن من حبات الرمل ذلك الكثيب الكبير . وأما المدرسة الثانية فتدين بأن المسألة ليست مسألة أفراد ، وانما مسألة « علاقات » ، وان الفرد ليس شيئاً قائماً بذاته ، بل جزء من كل ، كاليد في الجسم مثلاً ، هي جزء ولكن لا تنفصل عنه ، وعلى ذلك يكون الافراد كالأمواج في العباب الكبير ، كل موجة لها كيانها وشكلها ، ولكنها مندمجة في الأخرى وفانية فيها ثم هي أخيراً فانية في المحيط الكبير .

والواقع أيها السادة اننا لو استعرضنا الحركات الاجتماعية في الأيام الأخيرة ، لوجدناها لا تخرج عن هذا . فهناك مدرسة Laissez faire التي تبيح الحرية للافراد ينتج كلٌّ ما يريد وتقدر ما يشاء ، والرأي أن الفرد على هذا النحو يسعى الى إسعاد نفسه ورخائها ، وسيؤدي

ذلك الى اسناد المجموع . والمدرسة الثانية المدرسة المثالية ، ومنشؤها فلسفة كانت وهيجل وهي تؤكد ان المسألة كلها مسألة «علاقات» . ونحن في الحقيقة لا نعرف حقيقة الشيء الصغير الذي يبدأ نواة للحلقة الكبرى ، وانما نعرف هاته الحلقة الكبرى ونحيط بها ونؤمن ، ولذلك فهي أهم من تلك النواة الصغيرة

اما المدرسة الاولى ، فهي المدرسة التي ينبت على حرية المغامرة والكسب Enterprise فأحدثت رخاء اقتصاديًا لا شك فيه ، ولكن التفاوت بين قدرة الافراد على المغامرة المرغوبة أدى الى تكديس البؤس والشقاء ، والى وجود عاطلين لا يملكون القدرة على المغامرة

اما المدرسة المثالية ، فهي المدرسة التي كما قلت تدين بان الفرد للجماعة ، وانهُ ليس لهُ الاَّ ان يكون للجماعة ، فالجماعة تمثل على الارض ذلك الكل الذي ينتهي اليه كل شيء ولكنهُ حدث ان قام قوم يظنون انهم روح هذه الجماعة والمتكلمين بلسانها ، والواقع ان الدافع لقيام هؤلاء الناس شيئان :

اولاً — ان النظرية التي تفرض ان الفرد ليس له قيمة الاَّ بانتسابه الى المجموع ، وليس لهُ رأي الاَّ رأي المجموع التي تتحكم فيه عوامل طويلة عريقة من المؤثرات القديمة والحاضرة ، وهي تشكل هذا الفرد او ذاك — اي ان عوامل البيئة والوسط وحوادث الاجيال هي التي تصب هذا الفرد او ذاك في «القالب» الذي تريده — هذه النظرية بثت في الافراد التواكل وضعف الثقة بذاتهم وأفضت في الوقت ذاته الى قيام نفر يفهمون هاته الحقائق ويستغلونها استغلالاً ضارًا

اقف هنا قليلاً لأتكلم عن نقطة هامة جدًا . ثم أعود الى ما بدأت . . . قلت إن نظرية المدرسة المثالية تفرض ان الانسان جزء من كل ، والنظريات التي تليه العقل الانساني وكيف يعمل ، مشابهة لما ذكرنا . فهناك نظرية تفرض ان العقل «وحدات» او ذرات وتسمى النظرية « الذرية » . . . اي ان قوات العقل وحدات متجاورة ، تقوم كل بواجبها مع العناصر الاخرى فيما يتعلق بوظيفتها . والنظرية الثانية وهي الصحيحة هي النظرية الكيميائية او الديناميكية ، وهي التي تقول ان العقل دوافع متداخلة متفاعلة متصلة متشابكة . والعقل على هذه النظرية وحدة متماسكة فنحن مثلاً لا نحس السمع بغير النظر ولا النظر بغير السمع . . والعقل لا يميز بين احساس وآخر بل ان الشيء عنده «منظور مشموم ملموس» ! فالعقل من هذه الناحية «كل» . وهنا ترون التشابه بين نظام العقل والنظام المثالي في الاجتماع

غير ان النظام الديناميكي» للعقل يفسر لنا جميع الظواهر العقلية التي تسير الناس والشعوب

ان هذا النظام المنسجم المتصل المتشابك ، يفسر لنا قبول العقول للايحاء Suggestion فان الايحاء هو الصفة التي يتغلغل التأثير عن طريقها في العقل ويسيطر عليه كوحدة كاملة اذ

لو كان العقل أجزاء منفصلة متجاورة لما أمكن ذلك الايحاء ، ولما أمكن أن نتصور كيف يحدث الاستذكار . وقريب من صفة الايحاء ، صفة المشابهة أو الحلول « identification » والايحاء والتشابه لهما شأن أيّ شأن في حياتنا المنزلية والاجتماعية . ويفسران كثيراً من النظريات التي كانت الى عهد قريب مكسوة بالتزييف والتضليل

أما في حياتنا المنزلية فان الطفل يحاول أن يشابه والديه أو يحل محلهما ، أو يكون « هما » وفي حياتنا الاجتماعية يحاول الفرد أن يشابه زعيمهُ أو سيدهُ أو يكون « هو » . وهذه الصفة صفة المشابهة أو محاولة أن يكون « هو » على أتمها في الطفولة

وهي صفة يستغلها الزعماء الذين يربون الامم لاغراض سياسية أي يربون أجيالاً مطواعة . فانهم يتناولون الاطفال في اعمارهم الغضة ، فيصنعون بهم ما يشاءون باستغلال الصفتين المتشابهتين ، الايحاء والمشابهة . اما بالايحاء ، فالطفل سيقبل كل ما يوحى به اليه . أما بالمشابهة فهو سيحاول ان « يتقمص » روح والده او استاذه أو زعيمه . وبعض الامم استغلت هذا الامر في تعليم ابنائها استغلالاً سليماً فصار التاريخ يدرس على طريقة خاصة والجغرافيا على لون بعينه وهكذا

أما عندما يكبر الناس فهم لا يزالون قابلين للايحاء والمشابهة ، ولكن بقدر ضعيف ، فاذا أريد تنشئة جيل من الذين اجتازوا عهد الايحاء والمشابهة ، صعب ذلك جداً ، وأخذ مهذبو الجيل يستعملون الطرق القاسية لاكراه الناس على قبول ما يريدون . فيحدث لهم ما يسمّى Mass neurosis أي الاضطراب العصبي في الجماعات ! أي أن أعصابهم تضطرب وتتقلقل وتضيع لديهم وحدة الغرض ، وينمحي من أمام عيونهم معنى الوجود . ان هذا تماماً هو ما يحدث للمريض بالاضطراب العصبي . انه يكون دائماً محيراً ، قلقاً مفككاً ... أي يعود طفلاً ... وعندما تعود الشعوب طفلة ، أي عندما لا تعرف لها معنىً سامياً تلتمسهُ ، تبحث عمن تسلم قيادها اليه انها تبحث عنه مكرهة ، وهو يأتي اليها مختاراً ... وهذا هو السبب الثاني الذي أدّى الى قيام السادة الذين ذكرتهم . ان كثيراً مما يباهي به انصار نظرية « الجنس » ويفتخرون به على انه « بطولة » موروثة او شجاعة اشتهر بها هذا الجنس او ذاك ، لهو وهمٌ كاذب ... حقيقة ان الوراثة لا تعد أمرا ، ولكن شأنها قليل في التربية ، في المنازل او في الامم

فان الأمم حين تحمّ طفلها على صفة ما تقول — أبوه كان كذا وجده كان كذا ! — ولكن الحقيقة ان هذه هي نظرية المشابهة identification التي أشرتُ اليها

ومثل ذلك يقال في الأمم . فهذه الامم التي تفتخر بجنسها ، وتقول نحن ابناء البطولة ونحن ونحن ، انما تحس فيهم ما قد حدث تماماً . ولذلك ينحازون للجنس والقومية ويدعون ان هذا الجنس أرقى من ذاك . ان ابحاث سنجهان وجلسبرج خرجت للوجود ببراهين عجيبة .

فقد أجرى هذان العالمان أبحاثاً على جماجم الاجناس المختلفة ، وأجروا تجارب على الذكاء ، وتجارب على الامزجة Temperament فلم يتكروا ان تركيب الادمغة يختلف حقاً ، وعلى ذلك تختلف قوى الذكاء والادراك ، ولكن لا يصح ان يقال على الاطلاق ان هذا الشعب أذكى من ذاك ، فان المسألة ان تلافيف المخ في نموها سبقت في أمكنة وتخلفت في أخرى

اما عن مسألة الامزجة فقد أثبتا ان العالم ينقسم الى قسمين introvert و extravert وتبينا بأدلة ناصعة ان هذا ناشىء من التكوين الفيزيولوجي ، كمسألة الغدد والهرمونات ، وثانياً بعد ذلك ان هذه الصفات الجنسية ، حقيقة قد تكون مميزة لجنس عن آخر ، ولكن لا يمكن اطلاق ذلك على مداه ، ثم انهما بينا ان مميزات الامة الواحدة يمكن ان تتغير تماماً في جيل واحد ، وذكرا على سبيل التفكهة ما كان يقال عن الانكليز في القرن السادس عشر وعن فرنسا في السابع عشر من نص كتابهم فقد كانوا يصفون اهل ذلك العهد وصفاً مناقضاً في الزاوية . وهذا لا يمكن ان يقال عن الامم الاخرى . فتغيرت الاوضاع الآن . وصار السيد عبداً والعبد سيداً . أما عن نظرية المشابهة ، فنصيبها في حياتنا العائلية عند ما نكبر ، هام جداً في الزواج . فان الناس في الواقع لا يعرفون لماذا يتزوجون ولماذا يخفقون في الزواج

يقول فلوجل ان الناس يتزوجون لغير الاسباب التي يعتقدها كل شخص . فلا للتناسل ، ولا للذة الجنسية ، ولا لشيء من هذا . وإلا فما سرّ فرحة الناس بالزواج ، وما سرّ الضحك التي تزف بها العرائس ، وما سر الرهبة والفرح في نفوس الناس جميعاً عند ما يشاهدون عرساً ؟

يقول فلوجل إن الاطفال في دورنا ، يعيشون في عالم من النواهي والزواجر

ويرون بأعينهم الأب والأم ممتعين بقسط كبير من الحرية . . وعندما يكبر الاطفال يرون الحرية الجنسية التي يتمتع بها الوالدان . فيتمنى الاطفال لو كانوا هم والديهم ، ليكون عندهم القدرة على الحصول على الاشياء بسهولة ، وليكون عندهم الحرية الجنسية المنشودة أي يريدون أن يكونوا « هم » . ويظل هذا الخيال الابويّ ملازماً لنا في بعد ، وهو ما نسميه المركب الأبوي Paternal Complex . فعند ما نحب : إما أن نحب وفي خيالنا ذلك المركب الأبوي ، وإما أن نحب أنفسنا أو من يشابه أنفسنا ، أو من يكبر أنفسنا

ولكننا لا نستطيع أن نفصل حب أنفسنا عن ذلك المركب الابوي . وقد ينفصل عند بعض الناس تماماً . فأما الذين يكون عندهم مزيج من المركب الابوي مع الحب « النرجسي » أي حب الذات فغالباً يفلحون في الزواج . وأما الذين عندهم المركب الابوي فقط ، فغالباً لا يملكون في الزواج غير عاصفة العطف والحنان ولذلك يخفقون كأزواج . كذلك يخفق الذي يبحث عن رفيق لا يشابه نفسه ولا يكملها بل يختلف عنها اختلافاً تاماً

العلامة إينشتين يبسط رأيه في

العلم الحديث

والشعور الديني الكوني

[وجه نبوليون الى لابلاس — أعظم فلكي عصره ومؤلف كتاب «الميكانيكا السموية» — سؤالا قال فيه إنه لم يقع في مؤلفات لابلاس على ذكر «الله» فما سبب ذلك ؟ فكان رد لابلاس (لست بحاجة بصولاي الى مثل هذا الفرض) . في هذا الجواب يتلخص وصف موقف العلماء في القرنين الثامن عشر والتاسع من سر الكون، وهو موقف غلبت عليه صورة ميكانيكية وكنا الايمان بان النواميس الطبيعية كافية لتفسير كل ما في الكون ومردها الى القول بان كل حادث في الكون سبق تحديده بحسب هذه النواميس . ولكن المذاهب الجبرية والمادية وما اليها صدمت صدمتها الاولى في مستهل هذا القرن عندما أخرج بلانك نظرية « المقدار او الكوانتم» ولا يخالى اذا قلنا ان في دوائر العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية في القرن العشرين انقلاباً قد لا يقل أثراً في مستقبل الثقافة البشرية عن أثر هذه الحرب العالمية الطاحنة وما ينطوي في تاليها من بدور العالم الجديد . ولذلك صدرنا الجزء الاول من المجلد الثالث من المقتطف برأي عالم أميركي كبير في ناحية من موضوع العلم والدين ، ونختم باب المقالات برأي العلامة إينشتين ، وسنوالي نشر ما يتاح لنا من هذا القبيل — المقتطف]

كلّ ما يأتيه الانسان من عمل وتفكير انما يأتيه اشباعاً لحاجات يحسّ بها او فراراً من الألم . ولا بدّ من تذكر هذا القول اذا حاولنا أن نستقصي النهضات الروحية او العقلية وكيف تنشأ وتترعرع . لان الشعور والتوق هما القوتان المحركتان للسعي الانساني والانتاج الانساني، في كل شكل من الاشكال ينجلي هذا السعي او يتجسم ذلك الانتاج

فما هو الشعور وما هي الحاجات التي حملت الانسان على التفكير تفكيراً دينيًّا أو على الايمان ، بأوسع معاني الايمان والتفكير الديني . فنحن اذا تأملنا ذلك وجدنا ان عواطف مختلفة كانت مهداً للتفكير الديني وللاختبار الروحي

ففي الشعوب البدائية كان الخوف اول حافز للانسان على الشعور الديني — الخوف من الجوع والخوف من الحيوانات الضارية والخوف من المرض والموت . ولما كان فهم العلاقات السببية الكائنة بين مظاهر الطبيعة وعللها محصوراً في نطاق ضيق ، كانت النفس البشرية تخلق كائناً شبيهاً بها الى حدّ ما ترجع اليه جميع الأفعال والاختبارات التي تبعث فيها شعور الخوف وتأمل ان تسترضي هذا الكائن بأعمال وتضحيات ، تثبت خبرة الشعب وتقاليده الموروثة، انها امور ترضيه او تكسر من حدة غضبه . هذا دين أدعوه دين الخوف

ثم يستقرّ هذا الدين بقيام طائفة من الكهنة تدّعي انها تتوسط بين الناس والكائنات

التي يخافونها وبذلك تقبض على زمام السلطة وتحلّ من الشعب في اعلى مقام

وكثيراً ما يجمع زعيم او طائفة او طبقة من الطبقات التي تسمى قواها من مصادر روحية ، بين منصب الكاهن ومنصب الحاكم الزمني . او قد تعقد محالفة بين طائفة الكهنة وطائفة الحكام للمحافظة على مصلحة الدولة والامة حسبما يرونها

وثمة مصدر آخر لنشوء العقيدة الدينية في الشعور الاجتماعي وما يتصل به من ثواب وعقاب . فالآباء والامهات وجميع زعماء الشعوب بشر غير معصومين عن الخطإ ولا بمعزل عن الموت . فالتوق الى الاسترشاد والمعونة يخلق في النفس صورة الله الادبية والاجتماعية . هذا هو ربّ العناية الذي يحمي ويحكم ويثيب ويعاقب . هذا هو الاله الذي يحبّ ابناءه ويعهد السبيل لخلودهم . هو المعزي في الألم والبؤس والحامي المكلوم . هو الحافظ لأرواح الموتى . هذه صورة الله الاجتماعية . ومن اليسير ان يتتبع الكاتب تطوّر فكرة الله من ديانة الخوف الى ديانة الاجتماع او ديانة الآداب في كتابات البهود المقدسة . وديانات أكثر الامم المتحضرة وخاصة امم الشرق تغلب عليها صبغة الديانة الادبية

ومن أهم وجوه التحوّل في الأمم القديمة هو تحول الفكرة الدينية فيها من ديانة خوف الى ديانة آداب . ويجب ألاّ نخطىء بحسبان ديانات الأقدمين ديانات خوف مجرد وديانات المتحضرين ديانات آداب مجردة . لان الديانات الاولى والثانية انما هو مزيج ، يغلب على الاولى عنصر الخوف ويغلب على الثانية عنصر أدب النفس . وفي كليهما يتخذ الله صورة انسان

ولكن بعض الافراد الممتازين في الامم التي بلغت مرتبة سامية من الحضارة يرتفعون بفكرتهم الدينية فوق هاتين المرتبتين ويهم يدعو الى مرتبة ثالثة من الاختبار الديني أدعوه «الشعور الديني الكوني» . وليس باليسير تفسيره لمن لا يحسّ به . لانه لا يشتمل على صورة انسانية لله . ولكن من يحسّ به يدرك بطلان الرغبات الزائفة والاغراض الانانية الصغيرة وصل النظام العجيب الذي يكشف عنه في عالم الطبيعة وعالم الفكر . ويشعر ان مصير الانسان اذا هو قيد له لذلك يحاول ان يفسر الكيان الكوني كلّه وحدة عاقلة بانتظام

ودلائل هذه الفكرة الكونية تبدو لنا في مهدي ديانة الخوف وديانة الاجتماع . ففي مزامير داود وفي رسائل الانبياء نقع له على اثر جلي . وعنصر هذه الفكرة الكونية أقوى في بعضها منه في المذاهب الدينية الاخرى على ما اثبتته لنا رسائل غير بعيد

وبالفكرة الدين كانوا يعتنقون في جميع العصور وهذا الاتجاه الذي نسميه «التقوى» لا يعترف بانه مصنوع في صورة انسان ولا بحدّ رحاله

وعليه ينعدر عليك ان تحد كنيسة تقوم معتقداتها بالاساسة على هذه النظرة الكونية

الى الدين . فقد يتفق لنا ان نجد بين هراطقة العصور رجالاً كانت تدفعهم أسمى البواعث الدينية . فكان بعضهم في نظر معاصريهم ملحداً وكان البعض الآخر من الأبرار القديسين

وإذا نظرنا الى ديموقريطس والقديس فرنسيس الاسيزي وسپينوزا من هذه الناحية رأيناهم في صفٍّ واحد . فكيف نستطيع أن ننقل هذا الشعور الديني من انسان اذا كان لا يمكننا من تصور الله في صورة ما ولا يأذن بطبيعته في بناء فقه ديني عليه ؟ وعندي ان اسمى وظائف الفن والعلم هي أن تثير هذا الشعور وتغذيه وتحفظه متقداً في صدور الناس المستعدين له

ومن هنا نصل الى نظر جديد في علاقة العلم بالدين يختلف كل الاختلاف عن النظر المألوف . فدرس التاريخ يحملنا على الاعتقاد بأن العلم والدين ، خصمان يتعذر التوفيق بينهما وذلك لسبب معقول جداً . لأن انساناً مشبعاً بروح الناموس الطبيعي في كل حادثة تحدث ويسلم بفكرة وجود علةٍ لكل معلول ، لا يستطيع أن يسلم قط بفكرة كائن يعترض تسلسل الحوادث تسلسلاً طبيعياً . فلا ديانة الخوف ولا ديانة الاجتماع والآداب تستطيع أن تعمل في تفكيره وشعوره المقام الاسمى

لذلك رمي العلم خطأً ، بهدم آداب الناس لأن السلوك الأدبي مبني على العطف والتهذيب والعلاقات الاجتماعية ، ولا يحتاج الى تأييدٍ ما من العقيدة الدينية . ما أسوأ مصير الانسان لو كنا نحتاج الى اله رهيب أو اله يثيبهُ على كل ما يفعل في ارغامه على حفظ النظام وحسن السلوك!

فمن الطبيعي المعقول ان تقدم بعض الكنائس على محاربة العلم واضطهاد مؤيديه ولكني اثبت هنا ان « الشعور الديني الكوني » هو أقوى وأنبل باعث على البحث العلمي وليس باليسير على من لا يقدر امر الباحثين في فروع العلم ، وما يقتضيه الابداع العلمي من الدأب والتضحية والبذل في جميع نواحيه ، وبُعد مرمى الباحث عن الربح المادي ، ان يدرك قوة البواعث التي تحمس الباحثين على كل هذا . أي ايمان ثابت في انتظام الكون وأي تأمل عظيم الى النور بلمحة من لمحات الحقيقة . حدوا بكپلر ونيوتن الى الكشف عن بعض قوانين الطبيعة خلال سنين مضاعفة من العمل المضني المملّ !

اما الذين لا يعرفون من العلم — البحث العلمي — الا مظاهره التطبيقية فكثيرون يخطئون فيه الحالة العقلية في رجال . كان يحفّ بهم معاصروهم دائبون ساهرون ولكنهم كانوا على هذا فيدفعون طريقاً للارواح المؤاخية لهم في جميع البلدان وعلى مدى جميع العصور ولا يستطيع أن يتصور مصدر الوحي الذي يدفع بهؤلاء الرجال الى [illegible] وتضحية وشارة رغم كل إخفاق وكل سخرية . الا من وقفوا حياتهم على [illegible] هو « الشعور الديني الكوني » الذي يحركهم ويمنحهم القوة !

باب الأخبار العلمية

رصاصة في القلب

مدى اربع وعشرين سنة

هذه قصة لا يكاد يقبلها العقل لو لم يكن راويها الدكتور ترنر استاذ الجراحة في جامعة لندن . وخلاصتها ان جنديًّا انكليزيًّا اصيب في أوائل سنة ١٩١٧ برصاصة رشاش المانيّ على مسافة خمسمائة ردة . فاخترقت الرصاصة ملابسه جميعاً وكان في جيبه الايسر دفتر ورزمة من الرسائل فاخترقتهما كذلك. وبدا من فحصه الأول ان لا مفر من اصابة القلب بها مع ان نبض الرجل وحرارته كانا طبيعيين . ففحص بالاشعة السينية ، فاذا قاعدة الرصاصة مدفونة في عضل حجاب القلب ورأسها متحرك مع الدم المندفع داخله . وكانت حالة الرجل طبيعية ، فأبى الا عودة الى ارضية التي منحها . ولكن المايجر جنرال ترنر احد اطباء الجيش خشي ان حياة المصاب لأن الرصاصة قد تخرج من عضل القلب فتوقف عمله او تحدث جلطة فتقضي الى وفاته . فقرّر ان يعمل له عملية جراحية لاستخراج الرصاصة

وبعد انقضاء ستة اسابيع على الاصابة خرج الرجل الى مائدة العمليات بعد تحذيره، وشق الصدر وقضى على ذلك ساعة وثلاثة ارباع الساعة باحثاً فلم تجد الرصاصة. وحتى القلب في بدء العملية خفقانه العنيف وبقي في حالة طبيعية طوال العملية اذا استثنينا هنيهة توقف فيها تماماً عن الخفقان

وبدا للجرّاح الموقع الذي اخترقت فيه الرصاصة جدار القلب ، ولكن العضل كان متصلباً فلم يكن في وسع الجراح ان يحسّ بوجود الرصاصة هناك ، لأن العضل كان عند انقباضه صلباً كالحجر

ولم تكن فترة الاسترخاء القصيرة بين انقباض وانقباض كافيةً ليحسّ الجرّاحُ الرصاصة في خلالها فشكّ إبراً في القلب لاستكشافها ولكن العضل كان صلباً فأحدث وخز الابر تزقاً غاراً لا غير . واخيراً اخذ الجراح القلب كله في يده متحسساً فتبين الرصاصة باللمس ولكنها كانت في موضع جعل استخراجها متعذراً ، فقرر ان يعيد القلب الى مكانه وان يخيط الشق . وقد تحمل الرجل العملية وشفي منها وبعد ثلاثة اسابيع غادر السرير وبعد خمسة اسابيع استطاع ان يمشي. وقد تزوج وتمكن من ان يلعب الطوف بغير ان يجهد نفسه

والرجل حي وهذه التفاصيل مأخوذة من فم الجرّاح مايجر ترنر وهو الآن استاذ الجراحة في جامعة لندن

عنصران خفيان

في طيوف اكليل الشمس والسديم

لكل عنصر من العناصر الاثنين والتسعين يدفق ضوءًا خاصًّا به عند ما يحمل بخاره على التوهج، فاذا فحص هذا الضوء بالمطياف عرف العنصر ما هو. وهذه طريقة من أحكم الطرق وأدقها في فحص العناصر في الشمس ودراسة النجوم بوجه عام

ولا يخفى ان الفلكي الانكليزي السر نورمن لكيير وجد في سنة ١٨٦٨ خطًّا في طيف الشمس لا يقابله خط عنصر معروف على سطح الارض، فدعا العنصر «هليوم» أي عنصر الشمس (شميوم اذا شئت) وبعد ذلك كشف الهليوم في بعض الغازات الارضية

وقبل ذلك بأربع سنوات وجد الفلكي الانكليزي السر وليم هجنز خطًّا غريبًا في طيف سديم ايضًا، ولم يجد ما يقابله على الارض فسماه «نبوليوم» أي عنصر السديم (سديميوم اذا شئت). وفي سنة ١٨٦٩ كشف الفلكي الاميركي يونغ خطًّا في طيف اكليل الشمس ولم يجد ما يقابله على الارض فسماه كورونيوم أي عنصر الاكليل او اكليليوم اذا شئت). ومثل هذان العنصران «نبوليوم وكورونيوم» تحيط بهما غلالة من الخفاء والغموض اذ لم يوجد ما يقابلهما على سطح الارض. وكان رجال البحث الفلكي يرجعون الى مقابلة خطوط العناصر الجديدة المكتشفة على الارض بخطي هذين العنصرين المفروضين في السديم والاكليل. ثم وجدوا في جميع العناصر الجديدة التي كشفت على الارض ما يقابل خطيهما [illegible] الهليوم في الشمس والارض. والآن ثبت ان خطي هذين العنصرين المفروضين ليسا خطي عنصرين على الاطلاق، بل هما خطان [illegible] وهو في حالتين خاصتين من التأيّن [illegible] بفعل الحرارة العالية

العناصر في ماء البحر

يدخل ثلاثون عنصرًا في تركيب ماء البحر [illegible] ما يوجد من هذه العناصر [illegible] جدًّا لا يستطاع تعيينه [illegible] وبعضها لا يستطاع تعيينه بالمطياف [illegible] وجوده فرضًا. لأن [illegible] في أجسام الحيوانات والنباتات [illegible] البحار

ومما [illegible] في ماء البحر [illegible] حسب [illegible] مقدار [illegible] وهو [illegible] ٤٧ [illegible] التي استخرجت من مساحيق [illegible] في خلال السنوات الأخيرة

آمال الشيب

روسيا قبلاً في المقتطف ان عالماً اميركياً (وهو يدعى ازباخر) وجد في مركّب فيتامين B عاملاً يعيد السواد الى الشيب من الجرذان . وقد دعا هذا العامل الحمض پاوا — امينو — بنزويك. وهو يوجد في الخميرة والكبد والعسل الاسود . فلما عقدت الجمعية الكيميائية الاميركية مؤتمرها السنوي في منتصف سبتمبر الماضي قرأ الدكتور ازباخر ومعاونهُ الدكتور مارتن رسالة جاء فيها ان التجارب التي جرّبت بالجرذان قبلاً واسفرت عن نجاح ، جرّبت كذلك بالبشر واصابت نجاحاً

وقد جرّبت هذه التجارب في مستشفى مدينة بوسطن واشرف عليها الدكتور سيث وكان عدد الذين جربت بهم ثلاثين تتفاوت اعمارهم من احدى وعشرين سنة الى احدى وخمسين سنة . وروف فعل هذه المادة في اعادة السواد الى شعرهم الذي وخطهُ الشيب مدى شهرين . وكان عليهم ان يتناولوا كلَّ يوم جرعةً من هذه المادة مفرغة في قالب قرص أبيض كقرص الاسبيرين. وعند الباحثين انهُ اذا توسعا في تجاربهما وتحقق ما اسفرت عنهُ التجارب الاولى من نجاح فالشيب قد يصبح نادراً

والحمض پاوا — امينو — بنزويك لا يوجد فقط في مواد الطعام التي تقدم ذكرها بل يصنع كذلك بالتركيب الكيميائي من مقطرات قطران الفحم الحجري ومشتقات النفط ويستعمل صبغاً. وهو رخيص الثمن لا يتجاوز ثمن الرطل منهُ خمسة قروش . ويلتظر ان تصنع اقراص منهُ وتعرض للبيع متى وافقت « مصلحة الصام والعقاقير » بالحكومة الاميركية على ذلك. وقد لا تحلُّ سنة ١٩٤٢ قبل ان يتحقق هذا في الولايات المتحدة الاميركية

الطعام والتدخين

عرض الدكتوران الباحثان الاميركيان ستيكرن وكريوي نتائج بحث دقيق اجرياه في حال التدخين بالطعام . وملخص هذا الرأي ان الرجل الذي يستطيب أكل اللحوم ويكثر منها اقل تأثراً بالتدخين من النباتي . ففي اللحم مواد تولد البروتين في الجسم وهذه المواد تعمل على تهذيب الاثر الضار للسيريدين والذين في دخان التبغ . وقد اقرضا هذا الرأي في قالب يستوقف الانظار إذ قالا « ان غير النباتي لا يستطيع ان يجاري تشرشل الذي يأكل اللحم اذا أعطيا جرعتين متساويتين من السيريدين والنيكوتين. ولو حقن غير آكل اللحم النباتي بقليل من السيريدين لما عمر الى الخامسة والثلاثين

«القلاع الطائرة» وطائفة من اوصافها الدقيقة

تعتمد هذه الطائرات — وهي ليست أضخم القاذفات بل تتوقها قاذفات ستراتنغ البريطانية وليبارتور الأميركية — على ارتفاعها وسرعتها في اجتناب الأذى. وهي لا ترتفع الى علوٍّ تعجز الطاردات عن بلوغه ولكنه علوٌّ لا تستطيع الطاردات ان تنشط نشاطها الكامل عند ما تبلغه. وهذه القاذفات مجهزة بمنظار «سبري» لتسديد القنابل. وبه يستطيع رجالها ان يسددوا قنابلهم من ارتفاع ٣٥ الف قدم او اكثر الى أهداف على سطح الارض. وهو جهاز نابغة في الدقة. ولا بدَّ من التدرُّب تدرُّباً طويلاً على استعماله لشدة تعقيده. غير انهُ متى أتقن مسدِّد القنابل عملهُ استطاع ان يفوز بنتائج تبعث على الرضى

وحركات هذه القاذفات تستطيع ان تبلغ بها ارتفاعاً يحتاج المرء عند بلوغه الى استنشاق الاكسجين المخزون، لان ارتفاعها قد يبلغ ٤٠ الف قدم. واذا لم يستنشق احد رجالها الاكسجين المخزون فقد وعيهُ في ست دقائق وفارقته الحياة في نصف ساعة

وقد أثبت الامتحان ان تصميمها أعظم ما يكون اتقاناً. وهي قادرة ان ترتفع بضعة بضعة آلاف من الاقدام و أثناء الاعمال الحربية فوق المستوى الذي صممت له. وأنى ما تستطيع الارتفاع اليه لم يعرف بعد. ولكن من النادر في تاريخ بشر بلوغ اجسام من المعدن سرعة أسرع كثيراً من سرعة

الى المستوى [illegible]

وقد عانت [illegible] "الطائرة وربما [illegible] جمة من تأثير [illegible] فعلى ارتفاع عظيم حيث تبلغ درجة البرد [illegible] تحت الصفر تتغلى قواذف [illegible] من التشحيم الاعتيادي. ولكن الامير [illegible] اخترعوا اجهازاً بارعاً دقيقاً للتغلب على هذه [illegible]

رجال الطائرة [illegible] طائرة سبعة — طيار ومراقب ملاحي [illegible] لاسلكي وقاذف [illegible] مدفعي، ومدفعي [illegible] وجميعهم يلبسون ملابس تدفأ بالكهرباء [illegible] جناباً لتسرب البرد الى قد يتجمد عليه [illegible] ويرتدي مهما يكون عليهم. يتعين عليهم [illegible] هذه الملابس رويداً رويداً وفقاً [illegible] طائرة في الطقس. [illegible] مجهزون بالاكسجين [illegible] يحفظون في اسطوانات كثيرة في أوعية [illegible] زعة وجد في الطائرة والتطبيق [illegible] راً [illegible] في رجالها و [illegible] امتحانات [illegible] لبطرة المتحيز [illegible] والعناء الذي [illegible] من اعتقال [illegible] الحركة ويحد [illegible] والنطق الى [illegible] الطائرة. [illegible] عقولهم بنوبات [illegible] والقنوط و [illegible] المشيئة العلي [illegible]

الاشعة التي فوق البنفسجية

تزيد تكاثر النبات الواحد الخلية

تستعمل أمواج الاشعة التي فوق البنفسجية، من أطوال معينة، لتنقية الهواء في بعض المستشفيات من البكتيريا. ودلّت مباحث السر فورنس تشايس — العالمة البيولوجية في المعهد السمثسوني الاميركي — على ان هذه الاشعة تفتك بالخلايا النباتية الخضر البدائية. ولكنها لما عرّضت هذه الخلايا النباتية نفسها للاشعة مدة تبلغ ثلثي المدة الكافية للفتك بالخلايا وجدت ان نشاط الخلايا الى التكاثر زاد زيادة واضحة

ومعدّل زيادة التكاثر تختلف باختلاف طول الامواج التي تتعرض لها الخلايا. وقد وجدت السر تشايس ان أنفع الأمواج من هذا القبيل هي الامواج التي طولها ٢٣٥٢ انجستروماً و ٢٤٨٣ انجستروماً و ٢٦٥٢ انجستروماً و ٢٩٦٧ انجستروماً. (الانجستروم جزء من ١٠ ملايين جزء من المتر) وتعريض هذه الخلايا لكل من هذه الامواج او لاحدها يزيد معدّل النمو زيادة معلومة

فخلايا الخضر المعرّضة للامواج التي طولها ٢٣٥٢ انجستروماً يزيد معدل نموها ٤٧ الضعف وتعريضها للامواج التي طولها ٢٤٨٣ انجستروماً يزيد معدل نموها ٣٦ الضعف

ومع ان عدد الخلايا زاد بفعل هذه الامواج الا أن حجم الخلايا الفردة نقص فكأنها لم تستوف المدة اللازمة للنمو الكامل قبل أن تثيرها الامواج الى الانشطار

علاج جديد للحروق

صُنع عقّار جديد من عقاقير السلفانيلاميد يدعى « سلفاديازين » وهو على ما يلوح من أفضل ما صنع حتى الآن للعلاج الحروق. وقد أقبل عليه جرّاحو جامعة جورج هبكنز. ويستعملونه الآن كلما دعت الحاجة اليه. يوضع المسحوق على ملاءات معقمة ويُذرّ على محلول هذا العقار مرة كل ساعة ويعنى عناية خاصة بدفئه. فلا تنقضي أربعة أيام حتى تتكوّن قشرة رقيقة على مكان الحرق وتبدأ تنفصل عن الجلد الجديد بعد عشرة أيام. والمحلول خفيف لا يؤذي العينين ويخترق موضع الحرق بسرعة فيخفف الألم

القدرة على مقاومة المرض

يذهب الدكتور هنري سمر Simms أحد أساتذة مدرسة الطب بجامعة كولومبيا ان القدرة على مقاومة المرض في البشر تكون على أعظمها في السنة العاشرة من العمر. ولو استطاع الناس مدى الحياة بهذه القدرة كاملة غير منقوصة لعمّروا خمسمائة سنة او تزيد

شيء عن الصناعة الحربية
في الولايات المتحدة الأميركية

لم تقبل الولايات المتحدة الأميركية ، على انشاء صناعة حربية واسعة النطاق ، الاّ من نحو سنة وبعض سنة تقريباً . وكان عليها أن تتخذ من بضع مصانع الذخيرة التابعة للجيش ، ومصنع واحد للمدافع الضخمة وصناعة طائرات محدودة بحدود المطلوب منها للخطوط التجارية ، نواةً لاعظم برامج الانتاج الحربي في التاريخ . فكان لابدّ لها من أن تنشيء مصانع جديدة وأن توسع نطاق المصانع القديمة ، وأن تحول مصانع السيارات الى صنع الدبابات ومحركات الطائرات وما أشبه ، وأن تجهز جميع هذه المصانع بالادوات التي لاغنى عنها في صنع الات الحرب. وكان لابدّ كذلك ، من أن توضع التصميمات الوافية لآلات الحرب الجديدة على ضوء الاختبار الحربي ، وأن تعدّل مرة بعد أخرى وتقدم ما يصنع منها على غيره حيناً بعد حين ويؤخر غيره ، وفقاً للحاجة الملحة ، في أميركا وبريطانيا وفي روسيا الآن

كانت السنة الماضية سنة تأهب ، وعلى الرغم من أنها كانت سنة تأهب ، أخرجت المصانع الأميركية من الطائرات مثلاً ما مكن أميركا ، من أن ترسل منها الى بريطانيا في خلال السبعة الاشهر الأولى من سنة ١٩٤١ عدداً عوّض كل ما خسره سلاح الطيران البريطاني في سنة ١٩٤٠ كلها. والى القارىء بضعة أمثلة على تقدم الصناعة الحربية الأميركية

بلغت قيمة ما صنعته مصانع الادوات اللازمة لصنع آلات الحرب في أميركا ٢٢ مليوناً من الدولارات في سنة ١٩٣٤ فزادت الى ٦٠ مليون ريال في الشهر الواحد في ابريل الماضي أي الى ما متوسطه ٧٠٠ مليون ريال في السنة الماضية على أساس هذا المعدّل. وينتظر أن تبلغ قيمتها السنوية في هذه السنة ١٩٤٢، الف مليون ريال . بهذه الأدوات تصنع أميركا ، البارود وسائر أنواع المتفجرات ومحركات الطائرات والدبابات والسيارات المدرعة والرشاشات والطائرات والمدافع والسفن الحربية والتجارية ، فزيادة ما يصنع من هذه الأدوات مقياس الى حدٍّ ما ، لما يصنع من السلاح والعتاد بها وحسبنا أن نضرب مثلاً أو مثلين

خذ المدافع الرشاشة : كان في أميركا قبل الشروع في برنامج الدفاع الضخم ، مصنع واحد يصنع هذه المدافع فوسّع نطاقه وزاد انتاجه أضعافاً ، ولكن الحكومة اشتركت بالاتفاق مع بعض الشركات احد عشر مصنعاً أخرى لصنع المدافع الرشاشة ، ولم يبرز أحدثها الاّ في يوليو وأغسطس الماضيين. والمدفع الرشاش الاول الذي صنع في هذه

المصانع الجديدة ، تمّ في ابريل الماضي ولكن الصناعة فيها جميعاً على أساس النطاق الواسع Mass Production واذا حسبنا ساعات العمل في هذه المصانع ٢٤ ساعة في اليوم وسبعة أيام في الاسبوع ، ففي كل دقيقتين يصنع فيها مدفع رشاش ، أو ثلاثون في الساعة ، أو ما يزيد على سبعمائة مدفع رشاش حديث كل يوم أو عشرين الفاً في الشهر

أو لنأخذ الطائرات : كان مجموع ماصنع من الطائرات الحربية في الاربعة الاشهر الاولى من سنة ١٩٤١ ، ٤٦٥١ طائرة ، والمعدل ١١٦٠ في الشهر . فبلغ ١٩١٤ في سبتمبر وينتظر ان يبلغ من ٢٥٠٠ الى ٣٠٠٠ في شهر مارس القادم ، وقد يبلغ ٣٥٠٠ أو أكثر في منتصف ١٩٤٢ . ولكن العدد وحده لا يكفي مقياساً لأن الاتجاه الآن في أميركا ، الى بذل أعظم جهد في صنع القاذفات الضخمة ذات المحركات الاربعة — من طراز القلعة الطائرة ، والليبراتور وغيرها . وقد قدر أحد الخبراء الجويين مجموع ما تصنعه مصانع روسيا وبريطانيا وأميركا الآن من طائرات ، بسبعة آلاف طائرة في الشهر الواحد أو يزيد قليلاً ويحتمل أن يزيد في سنة ١٩٤٢ الى نحو عشرة آلاف طائرة . بينما الانتاج الالماني الاوربي يتفاوت بين ٢٥٠٠ وثلاثة آلاف طائرة في الشهر . وهذان المثلان ، يُعدّان نموذجاً للتقدم الحثيث في الصناعة الحربية الاميركية ، ولكن معدل التقدم متفاوت بتفاوت اصناف السلاح والعتاد

ومما هو جدير بالذكر ان المصانع التي تصنع محركات الطائرات صنعت ٤٥٠٠ محرك منها في شهر سبتمبر ١٩٤١ . اما وقد خاضت الولايات المتحدة غمار الحرب متحدة الكلمة متراصة الصفوف فالمعقول ان تزال جميع العوائق التي كانت تعوق الصناعة الاميركية عن بلوغها أوج قدرتها على الانتاج الحربي

المنجنيس وفيتامين C

المنجنيس من العناصر التي تحتاج اليها كل أمة في صناعتها الحربية ، لانه لازم لصنع صلب خاص صلب من الفولاذ . وقد اثبت البحث الحديث انه لازم كذلك لتركيب فيتامين C فقد نشر الباحث الكيميائي الدكتور جكسون هنت في مجلة العلم الاميركية (وهي تقارن مجلة نايتشر الانكليزية) بحثاً يقول فيه ان الطماطم الذي يزرع في ارض تفتقر الى المنجنيس يقل فيه فيتامين C بينما يكثر في الطماطم المزروع في ارض غنية بهذا العنصر . وقد اجرى هذه التجربة في اناء ليتمكن من صنع جميع عناصرها فوجد ان اضافة مقدار من منجنيس يبلغ جزءاً من ١٥٠ الف جزء من التربة التي في الاناء ضاعفت مقدار الفيتامين في الطماطم

اللوزتان وشلل الاطفال

أذاع الدكتور فشبين السكرتير العام للجمعية الطبية الاميركية تحذيراً الى الاطباء بالامتناع عن نزع لوز الاطفال في أثناء تفشي وباء شلل الاطفال. وعنده ان الفيروس الذي يسبب شلل الاطفال، قد يدخل الجسم عن طريق الفم والحلق. وعندما يدخل الفم والحلق تلتقطه اللوزتان فتصابان في أثناء قيامهما بالدفاع عن الجسم. ولذلك يعتقد فريق من الأطباء ان نهوض اللوزتين بهذا العمل الدفاعي المجيد، يجعل الاحتفاظ بهما في أثناء تفشي وباء شلل الاطفال مرغوباً فيه إذ تُعَدُّ اللوزتان خطًّا من خطوط الدفاع ضدّ غزو هذا الفيروس الوبيل. وما يصدق على اللوزتين يصدق على لحميات الأنف

الليزوزيم Lysosyms

قلت في باب الاخبار العلمية بمقتطف نوفمبر سنة ١٩٤١ ان الدكتور فيلاتوف يستعين على ترقيع العيون بمادة مطهرة هي الليزوزيم اذ توضع فيها العيون ريثما تباشر عملية الترقيع، وان الليزوزيم مادة طبيعية واقية من التعفن اكتشفها فليمنج أحد اطباء بريطانيا العظمى وذلك في دموع البشر وفي غيرها من الافرازات الطبيعية الحية. ومع ذلك لم تستعمل في البلاد التي اكتشفتها بل اقتصر استعمالها على اتحاد جمهوريات السوفيات حيث يتوسلون بها الى وقاية الجراح من التعفن

وقد لفت نظري حضرة صديقي الدكتور احمد عبد الرحيم فهمي الرمدي المشهور الى ان هذه الكلمة الانكليزية تنطق ليزوزيم. فرأيت ويجدر بي في هذا المقام ترديد اعتراف العلماء بكون الطبيعة اعظم اساتذتهم من أقدم العصور الى هذا الزمان

ويسرني الآن، اتماماً لوصف الليزوزيم أن اقتبس ما سبق نشره بشأنه في مقتطف ديسمبر سنة ١٩٢٨ حيث قيل انه من أقوى المواد المعروفة لقتل الميكروبات. ويؤخذ من مباحث الدكتور فردريك رِدّلي أحد أعضاء الجمعية الطبية بلندن أن ملء ملعقة شاي من هذه المادة النقية تفعل في قتل بعض ميكروبات العين ما يفعله مائة جالون من ماء البحر الاجاج. وان هذه المادة توجد كذلك في كريات الدم البيض التي تهاجم الميكروبات المختلفة حين تدخل الجسم لتقيه منها وقد يصبح في الامكان استيرادها واستعمالها كما تستعمل المطهرات المشهورة

عوض حندي

الحرارة والذاكرة

أجرى الدكتور جون فرنش أحد أساتذة جامعة برنستون الاميركية تجربة عجيبة ليتبيَّن هل هناك صلة بين الحرارة والذاكرة. واتخذ سمك المرجان موضوعاً لتجربته ، فوضع السمكَ في حوض فيه تبةٌ وبعدما تعلم السمك مداخل التبة ومخارجه، غيَّر الباحث حرارة الماء مراراً فوجد انهُ كلما ارتفعت الحرارة زاد نسيان السمك ما تعلمهُ قبلاً من شؤون هذا التبه . واستبعد القول بأن الماء الدافىء أفضى الى تراخي نشاط السمك

طول باشلس التيفود

يبلغ طول باشلس التيفود ثلاثة ميكرونات على المعدل. او ثلاثة اجزاء من خمسة وعشرين الف جزء من البوصة. ولو كبرنا هذا الباشلس حتى يبلغ طولَ مسطرةٍ طولها قدم وكبرنا المسطرة بالنسبة نفسها لبلغ طول المسطرة عشرين ميلاً

عصر النتروجين

[تابع المنشور على الصفحة الثامنة]

واذا كان من الفروض في دوائر الحرب ان الجيوش يجب ان تتلقى الأوامر الصادرة اليها وتنفذها بغير تفكير فيها — وقد قال تنيسون في قصيدته « كتيبة الفرسان الخفيفة » ليس ثمة مجال للتفكير ، ولا للسؤال — فان قواد الجيوش وضباط أركان الحرب لا يستطيعون التفكير في الخطط الحربية الا بالنتروجين ، فهو سر المادة السنجابية في الدماغ . أي إن الجيش يزحف بالنتروجين ويحارب بالنتروجين ويفكر بالنتروجين . بل ان التفكر كله في كل حضارة ليس الا مظهراً من مظاهر النتروجين

نعم ان طوائف النبات والحيوان تحتاج الى عناصر اخرى غير النتروجين كالفصفور والبوتاسيوم والحديد والكلسيوم والمغنيزيوم والكبريت والبورون وغيرها . ولكن المتاح من النتروجين في مركبات تصلح للاستعمال هو العامل الذي يتحكم في النمو . واذا كان البستانون يقولون « النتروجين للنمو، والفصفور للزهر، والبوتاسيوم للثمر » وتصنع الاسمدة الكيميائية محتوية على مقادير مناسبة من هذه العناصر ، فتوهم ان « النتروجين للنمو » يصدق على نمو البشر حسداً وعقلاً صدقه على نمو نبات البستان . ان هذا العصر هو عصر النتروجين

مكتبة المقتطف

المخبأ رقم ١٣

رواية من ثلاثة فصول بقلم الاستاذ محمود تيمور بك نشرتها مجلة « الحوادث » في ١٤١ صفحة من القطع الوسط — مطبعة عطايا بمصر

كانت مجموعة « ثلاث مسرحيات » التي أخرجها الاستاذ محمود تيمور بك وأشرت اليها في مقتطف نوفمبر الماضي أول الغيث الذي أفاض على المسرح المصري خيراً وبركة وعلى الأدب المصري انعاشاً ونمواً ، فلم تكد تخرج تلك المجموعة حتى تلقاها النقاد بما هي جديرة به من الدرس ، وكانت مثار آراء واتجاهات في كتابة المسرحية المصرية ولغة الكتابة

أجل ! لقد كانت هذه المجموعة أول الغيث فها هي ذي مسرحية جديدة يخرجها تيمور بك بعنوان « المخبأ رقم ١٣ » تحتل بجانب أخواتها المكانة اللائقة بها من اهتمام النقاد ، كما اعد لمطبع مسرحيتين أخريين ، الأولى « عروس النيل » والثانية « عواتي »

والمسرحية الجديدة من ثلاثة فصول صوّر فيها المؤلف روح ثلاث طبقات من المجتمع المصري — العليا منه والمتوسطة والدنيا — وجعل مسرح حوادثها جميعاً في مخبأ ، وتناول هذه الحوادث بريشة ماهرة في سخريتها وتهكمها ، فمن الرقم السيء الحظ الذي وسم به المخبأ الى أسماء شخصيات المسرحية التي جعل الكثير منها مناقضاً لخلق صاحبها أو منسجماً مع طبيعته . فهنا رجل مراب اسمه « ذهب افندي » وفتاة من غوانى الملاهي اسمها « عفاف » ، وشاب مهذار اسمه « بهجت الناعم » وغير هؤلاء ممن وضع المؤلف اسماءهم مطابقة لروحهم

وتجري حوادث المسرحية في احد المخابىء العامة حيث لجأ فريق من الناس تختلف طباعهم ومشاربهم ومستواهم الأدبي على صوت صفارة الانذار ، وكلٌّ منا يذكر ما كان يدور في دهم المخابىء بين الناس في تلك الليالي السود من أحاديث وما يتحلى فيهم من ضعف أو قوة وتفاؤل أو تشاؤم . ولقد تناول الاستاذ تيمور كل ذلك في مسرحيته فكشف عن

النفس الانسانية في عنتها وما يساورها في ساعات القلق ومدى ما تتأثر به تبعاً لظروف الحوادث وتحولها ؛ فهي في أول الامر لا تحس بشيء مما أعده القدر من مفاجآت أليمة . فنحن نرى أصحاب المخبأ يدخلون اليه بعد ان انزعتهم من مسراتهم ومرحهم صفارة إنذار بالخطر فهم لا يزالون من لهوهم في نشوة فلا يلبثون ان يتابعوا ما كانوا فيه من مشاغلهم . فهنا المرابي يفاوض الغنيَّ الارستقراطي في صفقة ، وهناك الشاب انهذار يغازل فتاة اللاهي ويدعوها الى الغناء فالرقص ؛ وفي ركن آخر خطيبان من الطبقة الراقية يريد الخطيب ان يجد له في المخبأ خلوةً أتاحها له الحظ بخطيبته المحافظة التي يضايقها ما تجد ويشغلها عن كل ذلك شغلها بوالديها فتعامل خطيبها بقسوة . وهنا وهناك انواع شتى من الناس منهم مدرس ومنهم رجل أبله أخرس وبائع كعك وماسح احذية وامرأة بلدية عجوز . جميع هؤلاء قد اجتمعوا في مكان واحد وتفرقوا شيعاً في الفكر والغايات . ونحس ضيق بعضهم ببعض فما يلبث أن يقترح واحد منهم مراعاة نظام الطبقات في المخابىء ونفس سخرية البعض من البعض الآخر واستهجانهم لما يرون وما يسمعون حتى اذا طال بهم الوقت وسئموا البقاء وهموا بالانصراف متسللين بدأ اطلاق القنابل وبدأوا يتراجعون الى مخابئهم فيذعر ، وشغلهم الكرب عما كانوا فيه من لهو . فاذا كنا في الفصل الثاني وقد تهدمت عمارة على مقربة من المخبأ فدت انقاضها بابه كشف لنا المؤلف عن النفس البشرية عند ما يشتد القدر عليها فتفقد الرجاء فتحاول ان تصل بينها وبين السماء وتحاول ان تتسامى آلامها فيتنبه فيها الشعور الديني ويفكر اصحاب المخبأ في الصلاة عسى ان تنجيهم من ضيقهم وبرائهم بعد أن كانوا يسخرون من الشيخ الابله الاخرس يسترضونه ويتطلبون بركاته ويقدسون "به التبرعات ويتناسون الفروق وتؤلف المصائب بين قلوبهم . وهنا يطلق المؤلف ريشته الساخرة في كل موقف في دقة واقتدار . وما نلبث ان نجد هؤلاء انفسهم بعد ان استنفدوا ما كان مع بائع الكعك طعاماً وقد استغل ماسح الاحذية هذا الموقف في المساومة على هذا الطعام ، لا نلبث حتى نجد هؤلاء يتراهنون على زجاجات من الخمر كانت مع غاية اللاهي . حتى اذا كان الفصل الثالث وقد آذنت الشدة بالفرج وبدأت معاول رجال الانقاذ في ازاحة الانقاض عن المخبأ بدأت النفس البشرية ترتدُّ الى طبيعتها الانكارية وبدأ أصحابنا يسخرون من شيخهم الابله عند ما لاح بصيص النور وهبط اليهم رجل الاسعاف وبدأوا يتساءلون ما بينهم من فوارق ورى صحفيًّا يريد ان يلتقط لاصحاب المخبأ صورة فتقوم بينه وبين رجل الاسعاف مشادة يتدخل فيها بائع الكعك فيتضارب ورجل الاسعاف . وبين هرج الناس ومرحهم تدوّى صفارات الانذار من جديد وتسمع طلقات المدافع وترى النار وقد عجزها المتفرجون وانهالت بعض الحجارة والاتربة من

الثغرة الى المخبإ ويسدل الستار وقد وقف مامح الاحذية متوسطاً المخبأ وهو واضع يديه في خاصرته والمطلق يقهقه . . . .

هذه هي مسرحية تيمور بك الجديدة التي حاول فيها أن يتخذ من ظروف الحرب الحالية مسرحاً يشرح فيه النفس الانسانية فأحسن التشريح وكشف عن طباعها في دقة ومهارة وقد أجرى الحوار فيها باللغة العامية . كالمسرحيات الثلاث السابقات . وإنه ليسرُّنا أن نعلن عزم المؤلف على اخراج مسرحياته جميعاً في طبعات جديدة باللغة الفصحى خاصة بالاقطار العربية وهي مهمة مشكورة ورعاية للأدب العربي يسجّلها له المنصفون

حسن كامل الصيرفي

عيون معصوبة وقصص أخرى

مجموعة قصص مصرية كاملة وشعر منثور — للاستاذ محمود كامل المحامي — دار الجامعة للنشر والطبع بالقاهرة — صفحاتها ١٤٣ تحوي ثماني قصص واربع قصائد قصصية نثرية

ان نشاط الاستاذ محمود كامل لا حدَّ لهُ ولا مبالغة في الاحتفال به والثناء عليه . فقد أخرج في السنوات العشر الاخيرة عشر مجموعات قصصية ، وأشرف على إخراج احدى قصصه شريطاً سينمائياً ، ونقل مجموعة مختارة منها الى الفرنسية واخرى الى الانكليزية . أنظر مقتطف دسمبر سنة ١٩٤١) وهذا الى جانب اشتغاله اشتغالاً موفقاً بالمحاماة وباصدار مجلة الجامعة الاسبوعية

ولكن هذه المجموعة الاخيرة من قصصه « عيون معصوبة » تختلف عما سبقها في أنها مرسلة انطلق فيها المؤلف من قيود الخطة القصصية التي تخضع لاعتبارات « العقدة » وحبكتها وجعل حوارها بلغة عربية سهلة لا باللغة الدراجة . هذا من حيث الشكل والقالب . أما من حيث المعنى الغالب عليها ، فهي محاولة للدفاع عن « السموّ العاطفي » في البيئة المصرية وهو يقصد « بالسمو العاطفي » على ماقال لفظة Romance أي الشعور الذي يحرك الخيال والاتصال الى بناء قصور في الهواء !

« والعاطفة التي تجمع أحياء هذا الكتاب ، ليست تلك التي تنطلق بتفصيلاتها ألسنة المكارى على أرصفة الحانات في ساعات الليل الغائمة . انها العاطفة التي يعرف الشاعرون بها عبقرية الصمت »

« إنهم سعداء لان لكل منهم روحاً أخرى تفكر فيه وتعنى به وتحنو عليه ولا يتحدث

أمام الغير ولا يبحث في الانقاض عن ماض بعيد يحيل به حياتهم الى جحيم مسمم . ان بطلات وأبطال هذه القصص لهم عيون شابّة تلمع لاحظة ووهلة وتدلهاً . ولكنها معصوبة عن شرور الناس . أنها تقودهم نحو قدر محتوم يتجهون اليه راضين هانئين »

وقرّاء المقتطف أعلم قراء العربية بهذا الاتجاه الجيد في تأليف الاستاذ محمود كامل وقد طالعوا في خلال السنة الماضية والتي قبلها ثلاثاً من هذه القصص ، مثل « امرأة أخرى » و« رعدة الذكرى » وقد نشرت في المقتطف بعنوان « على صخرة في سيدي بشر » (مقتطف يوليو ١٩٤٠) و« عينان محصوبتان » (مقتطف يوليو ١٩٤١)

***

والحوار في جميع هذه القصص بارع وفيه لمحات دقيقة ولفتات بديعة تدل على امكناه المؤلف نواحي شتى من بواطن النفوس ودخائل الشعور كقوله في قصة (عينان محصوبتان) وهي قصة سيدة متزوجة — تحترم منزلة الزوجة ولكنها غير رضية العيش — تحدّث مثّالاً بالتليفون بغير أن يعرفها قبلاً او يعرف من هي وانما من البين ان روحها يوائم روحهُ

هو — . . . . ماذا تريدين مني ؟

هي — أن تدعني أبكي

وكقوله في قصة (امرأة أخرى) وهي قصة شاعر وامرأة أحبها ثم عرف أنهُ لم يكن أول من أحبت

هو — أجل . فقد كرهت تلك القصيدة ولو استطعت أن أجمع من المكتبات وأحرقها لـ ترددت

هي — لم

هو — لان الوحي الذي ألهب روحي ليلتئذ لم يكن نقياً

هي — اني سعيدة اذ أسمع منك هذا الكلام . . انك تحبني الى حد انك تثار من ماضي قبل أن تعرفني

هو — واهمة

هي — لا بل واثقة

هو — لي أعجل بي أدعك اليوم وانا أتحدث اليك حديث الوداع تتحرين بهذا الوهم . . . أما اليوم فان ما يأتي هو شعور الذين عرفوك قبلي . بشفاعة تلك القصائد . إنهم يقرأونها ساخرين . إنه شعور بالخيبة لا بالغيرة كما خيل اليك

هي — لست اول شاعر ألهبت روحه امرأة أحبها الناس من قبل

هو — هذا هو الفرق بيني وبينك . لم أحب في كل مرة كما أحب المرة الاولى واودع المرة الاولى لـ استطعت ان اكتب شعراً

ان الاستاذ محمود كامل قلب بهذه المجموعة صفحة جديدة كريمة في حياته القصصية فتنتهي له اطراد النجاح والاقبال

الطريق

رسالة ثقافية اسبوعية — بيروت صندوق البريد ٦٧١ — الاشتراك ٥٠٠ قرش سوري في سوريا ولبنان وجنيه انكليزي في الخارج

هذه المجلة الأسبوعية رسالة ثقافية تصدرها عصبة «مكافحة النازية والفاشستية» في سوريا ولبنان التي أنشئت سنة ١٩٣٥. واعضاء مجلس ادارة المجلة هم الاساتذة عمر فاخوري، انطون ثابت، يوسف يزبك، رئيف خوري، ورئيس تحريرها الاستاذ فدري فلفجي. امامنا الجزء الاول من «الطريق» وهو حافل بفصول نفيسة ادبية واجتماعية ولكن مقالة رئيس التحرير استوقفت نظرنا خاصة لانها بسطت «رسالة العصبة» بسطاً شافياً لبابها قوله «ان الاديب الحق لا يستطيع ان يكون حالماً من اولئك الحالمين الذين يصنعون الواقع ويتهربون في فترة النضال الاكبر التي نعيش فيها، من واجب الدفاع عن الثقافة المهدَّدة والحرية المثخنة بالجراح. الاديب الحق رائد من رواد الفكر، وقائد من قواد النهضة، ورسول من رسل الانسانية، وليس مخلوقاً غريباً مجنحاً، منقلب الاهواء، يرسم الزخارف على الطين، ويعيش نجيَّ الشكوك والأوهام، مصمّاً اذنيه عن نداء المظلوم مغلقاً عينيه عن مدية الظالم»

وقد عالجنا هذا الموضوع في مقتطف يوليو ١٩٤٠ في فصل عنوانه «مهمة رجال الفكر في ازمات الحضارة» وهو ملخص عن فصل طويل للفيلسوف السياسي الانكليزي الاستاذ هارولد لاسكي. وركن هذه المهمة «خوض معركة الحضارة في سبيل الحرية العقلية والأدبية لا الانزواء في برجه العاجي وترفعه عن الكفاح»

وكذلك «لا يجوز لرجل الفكر ان يقف موقف متفرج متجرد من شؤون عصره كأنه يزن قطعة من المعدن».

ولو «اراد التجرُّد في ما يتعلق بمسائل السياسة والاجتماع والأخلاق لوجده متعذراً».

واذا كانت هذه مهمة الأديب او المشتغل بشؤون الفكر، بوجه عام، فما مهمة الأديب في هذا العصر الذي تنتابه الزعازع السياسية والاجتماعية وفي هذه الاقطار العربية اللسان

ان مهمته في البلاد العربية على ما جاء في «رسالة العصبة» مكافحة النازية والفاشستية. وفي هذه الرسالة وفي الرسائل المنبثقة من «الطريق» «ما يقنعهم ان نضالنا ضد الفاشستية والنازية وثيق الصلة بنضالنا من اجل استقلالنا وحريتنا متين الواشجة باصلاح المجتمع العربي ....» ثم «واذن فنحن على حق حين نقول اننا في حاجة الى حرية العالم لكي نضمن حريتنا وامانينا». وبين القولين وفي سائر المقال الى منتهاه الادلة الناهضة على صحة هذا الرأي

وقد خصصنا هذا المقال الاول بالكلام دون غيره من فصول «الطريق» النثرية والشعرية

لانهُ ينطوي على مبدأ « الطريق » ونهجه ، وبالقياس الى تأييد هذا المبدإ في الاعداد التالية ، والسير على هذا النهج ، يحكم على « الطريق » او لها . ويقيننا مما طالعناه في عددها الاول انها ناهضة بالعبء الذي لا يسع مفكراً ما او اديباً ما ان يتنحى عن حمله

قصص هندية للاطفال

بقلم الاستاذ كامل كيلاني — مطبعة المعارف ومكتبتها — خمس قصص جميلة

هذه سلسلة أخرى من سلاسل قصص الاطفال ، التي ما فتىء الاستاذ كيلاني يعدها وينشرها من سنوات وينفح بها مكتبة الطفل العربي ، فيمهّد لهُ في قصص يذكي الخيال ويوسع الادراك ويهذب النفس ، طريقاً لتعلم اللغة العربية كما يجب ان يتعلمها . فاللفظ هنا مختار والاسلوب فصيح سهل ، والكلمات مشكولة شكلاً كاملاً ، فالطفل الذي يتعود مطالعتها لا بدّ ان يفوق غيرهُ في اجادة اللغة والاقبال عليها ، متى بلغ المرتبة التي تقضي عليهِ بمعاناة قواعدها . وسواءٌ أصاب نجاحاً في دراسة قواعدها أم لم يصب ، فان قدرتهُ على التعبير تعبيراً عربيًّا سليماً ، لا بد ان تفوق قدرة غيرهِ بوجه عام ، لانه « يشب وقد صحّت لهُ ملكتهُ » كما قال علوبه باشا

وللاستاذ احمد فهمي المعروسي بك المربي المعروف رأي في مكتبة الكيلاني للاطفال جديرٌ بنا ان نوردهُ قال : « ان هذه الكتب — في بابها — فتح موفق . فهي تنقل الاطفال الى العلم ، وتطعمهم — بارادتهم — عليهِ ، ثم تتدارج بين خطواتهم ، وتساير فيه ملكاتهم ، وتنشئهم على اللغة الفصحى ، وفي بعض ذلك كلّ الفضل »

وكذلك معالي علوبه باشا وزير المعارف الاسبق قال من رسالة طويلة : « ومن أجل ما استرعى نظري في هذه الكتب ، التي هي دعامة أساسية لتكوين الطفل ، أنها وضعت على نسق جذّاب يملك على الطفل فكرهُ ، فاذا فكرهُ كلهُ فيما يقرأ ، واذا قراءته كلها في فكره . ومزية من مزايا هذه الكتب ، فصاحة عربيتها في لغتها ، وحسن موقعها من نفس الطفل ، فهو يعفى في قراءة القصة ، والقصة تعفي به في اسرها من الاداء ، والاسلوب يعفي بهما في السماحة على حكمها سهلاً ممتنعاً لا تكلف فيهِ ولا معاسرة ومن ثم ينشأ الطفل وقد صحّت له ملكته وأثمرت الفصحى فكرته . . »

ان خير انهاج التعليم — على قول احمد لطفي السيد باشا في هذه المكتبة — مصادف هوى المتعلم ، وأجدى انماط التربية ما لاءم مزاج الصبي »

فهرس الجزء الاول

من المجلد المائة

١ رأي عالم كبير في الدين والعلم
٧ عصر التزوجين : به تزحف الجيوش وتحارب
٩ أحاديث عن مي : —
١٠ حديث معطى عبد الرازق باشا
١٦ حديث هدى هانم شعراوي
٢٣ حديث الدكتور طه حسين بك
٢٩ حديث الاستاذ عباس محمود العقاد
٣٥ حديث مدام ايفي خير
٤١ حديث انطون الجميل بك
٤٧ حديث منصور فهمي بك
٥٦ حديث الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني
٦٢ حديث خليل مطران بك
٦٥ حديث مي : لمحمد عبد الغني حسن
٦٩ تأثير الاوبئة في الحروب الماضية
٧٣ رابندرانات تاجور كما أعرفهُ : لمحمود التجودي
٨٣ نقل الطاقة الكهربية أمواجاً في الأثير
٨٩ علم النفس ونفسية الافراد والشعوب : للدكتور ابراهيم ناجي
٩٤ العلم الحديث والشعور الديني الكوني
٩٧ باب الاخبار العلمية ... وصناعة ... القسم ... منعمران خفيان ... العناصر ... هذا البحر ... آمن الشيب ... الثلاج الطائرة وطائفة من أوصاف الثلج ... الاشعة التي فوق البنفسجية ... علاج ... الحروق ... القدرة على مقاومة المرض ... شيء عن الصناعة الحربية ... الولايات المتحدة الاميركية ... المجنيسيوم وتصنيعه ... التوزون وشكل الاصداف ... الليزوزيم ... الحرارة والذاكرة ... فنون باشمر الثيفود ... عصر التزويج
١٠٥ مكتبة المقتطف ... الفقد رقم ١٣ ... عيون معصومة وقصص أخرى ... الطريق ... قصص كامل كيلاني